إنقاذ اللغة..
إنقاذ الهويـة

تطويـر اللغـة العربيـة

دكتور أحمـد درويـش

وكيل كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

المحتـــويـــات

تمهيد
التراث العريق
واللغة المتجددة

ليس من المبالغة فى شىء القول بأن اللغة العربية واحدة من أعرق لغات العالم تراثًا، إن لم تكن أعرقها، وتلك شهادة لا يمارى فيها الأعداء، ولا ينبغى أن يسكت عنها الأولياء.

وإذا كانت هناك لغات أخرى عريقة فى الظهور أو التدوين، فإن كثيرًا من هذه اللغات يذكر الآن فى عداد الآثار الدارسة، أكثر مما يعد فى عداد الظواهر الحية المدروسة، وينبغى أن يحسب عمر عراقتها بالفترة الكامنة المستمرة بين لحظتى الظهور والاختفاء، وبهذا المعيار تحافظ العربية على مكانتها فى صدر اللغات العريقة.

ومن الشائع بين الباحثين فى هذا المجال القول بأن أبجدية اللغة اليونانية - وهى من أعرق لغات الغرب - اشتقت اسمها الذى تعرف به حتى اليوم «الألفابتيا» من الحرفين الأولين فى الأبجدية العربية، وهما الألف والباء، وانتشرت منها هذه التسمية حتى اليوم فى بقية اللغات الغربية الحية، التى لا تزال تطلق على علم القراءة والكتابة كلمة الألفباتزم ALPHA BETISME كما هو الشأن فى اللغة

الفرنسية التى تمتد باشتقاقات المادة فى عشرات الكلمات، التى تعيدنا إلى مصطلح الألفابتيا اليونانى، وهو يرسلنا بدوره إلى المصطلح العربى الموغل فى القدم، والذى يدل على السبق الزمنى للغة العربية فى مجال مقارنة اللغات.

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه «الثقافة العربية أقدم من الثقافتين العبرية واليونانية»: «لم يكن من المصادفة المجهولة أن يظهر فى لغة العرب الخط المسمارى، وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطى بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين، فإن التجارة التى تحتاج إلى المعاملة الكتابية، تجرى على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين، وهذه هى على التوالى مواطن الخط المسمارى، والخط المسند النبطى وما تفرع عليه.. وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس، فلا خلاف فى أمرين، أحدهما: أن الأبجدية اليونانية، منقولة عن أبجدية سبقتها، وأن هذه الأبجدية السابقة هى الأبجدية العربية التى تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها».

واللغة العربية، كما هو معروف، تنتمى إلى عائلة اللغات السامية التى تنتمى إليها لغات ولهجات أخرى مثل الأكاديّة والأمهرية والأرامية والعبرية، وإذا كانت بعض هذه اللغات، قد سبقت العربية إلى معرفة الكتابة، فإن معظمها قد اختفى من عالم اللغات الحية، وداومت العربية الحياة والتطور، وسوف تستمر ـ حفظها الله ـ بفضل جهود أبنائها وعلمائها.

وفى هذا الصدد يشير علماء تاريخ اللغات، إلى أن اللغة الأكادية فى أرض النهرين ـ وهى لغة سامية من الأسرة التى تنتمى إليها العربية ـ قد دونت منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، كما ترجع آثار العبرية، وهى من نفس الأسرة، إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، والآرامية إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وتظهر نصوص مما يسمى بعربية النقوش فى القرن الأول قبل الميلاد، وهى عربية كانت تتكلم بها عشائر تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين، وقد دخلت هذه العربية فى مراحل تطورية كثيرة، حتى وصلت إلى النصوص التى نعرفها الآن فى الأدب الجاهلى القديم، بداية من القرن الخامس الميلادى.

عراقة جذور العربية وامتداداتها التاريخية إذن، موضع تسليم بين الدارسين، ومنذ شرف الله هذه اللغة، وأنزل بها كتابه الكريم، اكتسبت العربية دوافع قوية، وأبعادًا جديدة، ولم تعد المحافظة عليها مجرد محافظة على إرث لغوى، وإنما أضيف إلى ذلك هدف المحافظة على الوعاء الذى يحمل رسالة الإسلام، وعلى الأداة اللغوية التى تؤدى بها شعائره المقدسة، ويتم التعبد من خلال كلماتها وتراكيبها، لكن من الإنصاف أن نلاحظ أن علماء الدين واللغة لم يذهب أحد منهم إلى القول بأن هذه اللغة مقدسة، ولا أن التعبد يتم بكلماتها، ولكنه يتم من خلال كلماتها، وكانوا يدركون تمامًا أن هذه اللغة كما كانت لغة النبى محمد وآله وأصحابه، كانت فى الوقت ذاته لغة محاربيه وأعدائه من أمثال أبى جهل وأبى لهب ومسيلمة وسجاح، وأنه كما تُليت بها آيات

القرآن وأحاديث الرسول، وأشعار المديح النبوى، فقد صيغت فيها ادعاءات المتنبئين وأشعار الهجائين ضد المسلمين، ومن هنا فلم يكن اتصال اللغة بالدين عقبة فى سبيل تطورها، وإنما كان على عكس ذلك دافعًا قويًّا على سرعة انتشارها، وإرساء أصولها، وإحكام قواعدها، ونشأة كثير من ألوان العلوم والآداب والفنون فى ظلالها.

وقد مرت العربية من خلال هذا الاتساع والنضج بمراحل حضارية بالغة الأهمية، أصبحت خلال فترة طويلة منها لغة العلم والحضارة الأولى فى العالم، واستوعبت أثناء تطورها تراث الحضارات السابقة عليها، وساعدتها طواعية نظمها وأبنيتها على استيعاب ما استقبلته من عطاءات اللغات الأخرى، وأصبح التعبير من خلالها عن مكتشفات العلم ودقائق التفكير ومستجدات الصناعات أمرًا مألوفًا، داخل حدودها وخارجها، وأصبح أبناء اللغات الأخرى، يعتزون بمعرفتهم للعربية، ويتبارون فى إجادتها وصياغة مقطوعات أدبية بها، وتاريخ الحضارة يعرف كثيرًا من هذه النماذج فى أسبانيا، وبلاد أوربا، وجزر البحر المتوسط فى عصر النهضة العربية، فضلا عن اعتزازه بأبناء اللغات الأخرى، الذين انضووا تحت لواء الإسلام فلم يكتفوا بمعرفة العربية واستيعابها، وإنما شاركوا مشاركة هامّة فى قيادة التطور فى علومها وآدابها وفنونها حتى كادوا يظهرون على أبناء اللغة الأصلية، إذا كان هناك داع للتفريق بين هؤلاء وأولئك.

ولاشك أن قوانين دورة الحضارات قد جعلت اللغة العربية

تنكمش على نفسها حينًا من الدهر، وتجف بعض أغصان أشجارها الخضراء، ويبدو جانب من الذبول على بعض ملامحها، لكن ذلك أبدًا لم يتطرق إلى قلبها، ولم يبعث الجفاف إلى جذورها فقد استعادت العربية منذ اتصالها بلغات الحضارة الحديثة فى القرن التاسع عشر، بعضًا من مظاهر حيويتها، وهى تسابق الزمن فى سبيل استعادة جوانب أخرى، ولا يستطيع منصف أن ينكر التقدم الذى حدث فى العربية مع عصر الطباعة والصحافة، والإذاعات المسموعة والمرئية، وشبكات الاتصال، ولكن سرعة دوران عجلة التطور وقوة عناصر التحدى تجعل من الحتم علينا جميعًا أن نفكر فى بذل مزيد من الجهد، لكى تثبِّت العربية أقدامها بطريقة أفضل، فى ترقيها، وليتاح لها من بعد، الانطلاق والنمو، ومواجهة أعاصير لاشك أنها ستزداد قوة وعتوًّا فى عصر الحرب الصريحة المعلنة على اللغة العربية من خارج حدودها، باعتبارها لغة «المعسكر» الذى يشكل العدو الجديد الذى صنعته نظرية «صراع الحضارات» صُنعًا، لكى تزداد آلة القوة والدمار والصناعة والرواج المادى، قوة لديهم على قوتها.

ولاشك أن هذه الحرب الحالية التى نشهدها اليوم ضد اللغة والتى يندفع إليها بعضنا ــ بحسن نية أو بسوء نية ــ تشكل جزءًا من حرب طويلة شهد القرنان التاسع عشر والعشرون كثيرًا من فصولها، على يد كبار الخبراء فى عصر الهيمنة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، وساندهم فى ذلك بعض دعاة التطوير فى جوانب من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ممن ربطوا

هذا التطور بفكرة الخلاص من المحافظة على اللغة فى شكلها التقليدى.

وجاءت فكرة «القطيعة مع التراث» لكى تشكل مبدأ هامًّا من مبادئ «الحداثة» الفكرية، ولكى تدعو إلى قطع الصلة بالماضى ورموزه البارزة وأولها الدين واللغة، وتجعل من هذه القطيعة شرطًا لانطلاق العقل دون عوائق، وتجدد نشاط الفرد والجماعة فى غياب عراقيل الماضى.

واللافت أن هذا المبدأ يراد لنا أن نطبقه نحن وحدنا دون سوانا فالذين ينافسوننا حضاريًّا فى منطقة الشرق، وفلاسفتهم ومنظّروهم وراء هذه المبادئ مهما تعددت الواجهات، هؤلاء المنافسون هم أحرص الناس على «ماضيهم» وأكثر الناس اعتزازًا به، سواء فى مظاهره المادية أو المعنوية، ولم يمنعهم ذلك من أن يحققوا تقدمًا علميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا مذهلاً، وهم خلال ذلك التقدم لا يفرطون فى ذرة من تراثهم وماضيهم، بما فى ذلك اللغة التى نجحوا فى إحيائها من الشتات والموات، بل إنهم يدّعون أحيانًا من التراث ما ليس لهم، ويضيفونه من خلال تزويرات علمية محكمة إلى تراثهم «التليد».

ومن أجل هذا، فإنه ينبغى حين نناقش قضايا الإصلاح المتصلة بالماضى، أن نحذر من الوقوع فى «فخ القطيعة» مع ذلك الماضى؛ لئلا نجد أنفسنا، دون أن ندرى، نحقق نفس الهدف الذى يسعى إليه أعداؤنا.

على أن ذلك لا يعنى على الإطلاق أن نتوقف عن نقد التراث

ومناقشة الماضى، والمطالبة بتعديل مناهج دراسته، والاستغناء عن الجوانب العرضية فيه، تلك التى من شأنها أن تعيق التقدم وتكبل الخطوات، واللغة ومناهج تعليمها داخلة فى إطار ما يناقش من تراث الماضى الممتد فى الحاضر من هذه الزاوية.

إن بعض جوانب التراث قد تراكم فيها العطاء على مر العصور، وأصبحت كالغابة التى التفت فيها الأشجار، بطريقة تجعل السير فيها يحتاج إلى خبرة ودربة ودليل يوضح الطرق الرئيسية الضرورية، والطرق الفرعية التى قد تضيع الوقت، ولا تساعد على سرعة الوصول إلى الهدف، وإذا تصورنا أن دعوات للإصلاح تعالت مطالبة باستثمار هذه الغابة وأشجارها وثمارها على نحو أمثل، فهل نتصور أن تتحقق دعوات الإصلاح تلك، بإشعال النار فى الغابة، أو بالقطع العشوائى الجائر لجانب منها، أم أن ذلك يتحقق من خلال تقليم الأغصان الزائدة، ونزع بعض الأشجار التالفة الميتة، وتوسيع الطرق الضيقة، وتعبيد طرق جديدة، وإنشاء متنزهات قريبة تستقبل الأطفال والرواد الجدد، وتعليم من يود أن يجرب روح الإيغال واكتشاف الكنوز، على طريقة السير والبحث، وغير ذلك من الطرق التى يمكن أن تزداد معها درجة استفادتنا من كنوزها، لا أن نسارع إلى الدعوة إلى إحراقها أو الاقتطاع العشوائى لبعض الأجزاء التى لا تعجبنا.

وقضية اللغة والتجديد فيها ينبغى أن تعالج على هذا النحو من التأهب والتسلح بمعرفة الخصائص، وبذل الاجتهاد فى إطار الإصغاء المتبادل، ونشدان الوصول إلى الحق أيًّا كان موقعه.

وهذا الكتاب محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه لطرح التساؤلات ومحاولة كشف جوانب القضية التراثية المعاصرة القديمة المتجددة - مشكلة اللغة العربية التى هى فى نهاية المطاف مشكلة الهوية العربية، فى امتداد جذورها وصلابة تماسكها، ومدى مقاومتها لتيارات الإذابة والمحو المعلنة أو المستترة.

والله ولى التوفيق

د. أحمد درويش

اللغــة والهويــة

يقول الشاعر الصقلى إجنازيا بوتينا من قصيدة جميلة له تحمل عنوان «لغة وحوار»:

ضع شعبًا فى السلاسل
جردهم من ملابسهم
سد أفواههم.. لكنهم مازالوا أحرارًا
خذ منهم أعمالهم.. وجوازات سفرهم
والموائد التى يأكلون عليها
والأَسرَّة التى ينامون عليها
لكنهم مازالوا أغنياء
إن الشعب يَفْتقر ويُستعبَد
عندما يُسْلبُ اللسان
الذى تركه له الأجداد
وعندها يضيع للأبد

نعم فالدور الذى تلعبه اللغة فى حياة الفرد والجماعة، يتجاوز بكثير مجرد كونها أداة ناقلة ومجسدة لما يدور فى الذهن من معان مجردة، يراد لها أن تنتقل من مرحلتها التجريدية، إلى مرحلة التجسيد

لتنقل الرغبة أو الأمر أو النهى أو الرجاء، أو تفتح باب التواصل والحوار.

فكل هذه الأهداف، على اختلاف درجاتها، يمكن أن تتحقق للكائن الحى، وليس للكائن البشرى وحده، بوسائل تعبيرية متعددة وهى ليست بالضرورة وسائل لغوية، فالحيوان الأعجم ينقل حاجته إلى الطعام أو الرى أو الإشباع، وينقل مشاعره خوفًا وتهديدًا وترحيبًا، من خلال تنوع فى درجات الصوت، وحركات الوجه، وتقلص الأعضاء أو تهللها، وهز الذيل أو سكونه، وغير ذلك من الوسائل التى ندركها وقد تعارفنا على فك شفرتها، ومن الوسائل الكثيرة الأخرى التى لا ندركها والتى تشكل فى ذاتها شفرة بين الجماعات المتجانسة، ومجالاً لاجتهاد الإنسان للتعرف على خفاياها.

ولا ريب أن الأمر لا يقف عند عالم الحيوان، وإنما يتعداه إلى عالم النبات، بل وإلى الظواهر الطبيعية، التى لاشك أنها تمتلك وسائلها الخاصة فى التعبير عن حاجاتها ورغباتها، وفق سنن الكون الدقيقة، وأن جزءًا من أسرار عمار الكون يكمن فى محاولة التعرف على هذه الوسائل وتشكيل رد الفعل الملائم لها من الإنسان سيد الكون وخليفة الله فى أرضه.

وإذا انتقلنا إلى عالم الإنسان نفسه، فإننا نجد أن اللغة ليست هى المعبر الوحيد عن حاجاته ومشاعره وأفكاره، وأنه يستطيع أن يمارس حياته كليًا أو جزئيًا، فى غياب اللغة المؤقت أو الدائم، مستعينًا بوسائل التعبير الأخرى التى تتاح للكائنات الحية، التى يشترك معها فى صفة الحياة، والحاجة للتعبير، ويتفوق عليها فى مراحل أخرى،

بامتلاك «اللغة» والصعود درجات متفاوتة فى تحقيق مفهوم إنسانيته، وانتمائه من خلال عنايته بها، فالطفل يقطع فترة من عمره تمتد للعامين وتتجاوزهما ـ وهى فترة تكاد توازى فى حياة بعض الكائنات الأخرى، عمرًا كاملاً ـ يقطع هذه الفترة مستعينًا بالأصوات والإيماءات، والتعبيرات الحركية الغريزية للتعبير عن الحاجة، ويكاد يتساوى فى شفرات الرموز والحركات فى هذه الحالة الأطفالُ الذين سينتمون لاحقًا إلى كل اللغات وهم يجتازون مرحلة ما قبل اللغة.

والذين يحرمون نعمة النطق من البشر، ويعيشون فى حالة لا يكلمون الناس فيها إلا رمزًا، يطورون وسائلهم غير اللغوية فى الاتصال، بطريقة تشكل لهم شبكة متكاملة من الرموز تفى باحتياجاتهم من ناحية، وتشكل الشبكات العالمية، لهذه الفئة، من ناحية أخرى، ما يمكن أن يكوّن لغة موازية للغات الأخرى فى مرحلة الحياة «خارج اللغة».

وحتى الأسوياء من البشر الذين اجتازوا مرحلة الطفولة وما «قبل اللغة»، ونجوا من مرحلة الحياة الصامتة «خارج اللغة» ـ هذه الفئة التى ينتمى إليها أغلب البشر، فى مراحل نضجهم، لا تعد اللغة عندهم هى الأداة الوحيدة الناقلة للمشاعر والأفكار، بل إنهم يلجأون إلى وسائل أخرى كثيرة، للإبانة عما لديهم، وتحقيق «بيان» ما فى نفوسهم.

وقديمًا كان الجاحظ شديد الدقة وهو يعبر عن هذه الأدوات البيانية المستغنية عن اللغة أو المتعاونة معها حين قال فى كتابه الشهير

«البيان والتبيين»: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع». ثم يوضح الجاحظ بعد ذلك خمسًا من وسائل الدلالات على المعانى، فيها وسيلتان لغويتان هما اللفظ والخط، وثلاث غير لغوية، وهى الإشارة والعقد والحال الدالة. ويقف الجاحظ فى مواطن كثيرة عند بلاغة الإشارة باعتبارها مكملاً لبلاغة العبارة، فضلاً عن كونها وسيلة تعبيرية فى غياب اللفظ والخط، ويقف كذلك عند فن العَقْد، وهو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، وله كتب فى فك رموزه فى التراث العربى، وقد وردت الإشارة إليه فى الأحاديث النبوية، وكذلك فن دلالة الحال التى كانت تسمى بالنِّصْبَة، ويغنى فيها الحال عن المقال.

ليس الدور الذى تلعبه اللغة ـ إذن ـ فى حياة الفرد والجماعة، منحصرًا فى القدرة على الإفهام وتوصيل المعانى المجردة، فتلك أهداف يمكن أن تؤدى حتى فى غياب اللغة، ولكن اللغة هبة، تمثل أول درجات تميز الكائن البشرى على ما عداه من الكائنات، ولعل هذا يبدو فى عدها الميزة الأولى التالية لخلق الإنسان نفسه، فى التعبير القرآنى: **﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤) ﴾**، فالامتنان بالبيان يأتى مباشرة بعد نعمة الخلق ذاتها،

وهذه الهبة يتم اكتسابها التدريجي مع النمو الأول لخلايا الطفل في شهور عمره الأولى، من خلال لبن الأم وصوتها، ومن هنا جاء مصطلح «لغة الأم» الذى نطلقه دائمًا على اللغة التى تلقاها الإنسان بفطرته وغريزته، وتعلمها كما تعلم الأكل والشرب والمشى، ربما بدون جهد إرادى منه، ولكن من خلال الاستجابة الغريزية لدوافع البقاء والتحضر، ولغة الأم هذه تكاد تعاصر فى تخلُّقها فى نفس الكائن البشرى مرحلةَ تخلّق خلايا المخ والذاكرة، وأوعية الاحتفاظ بالمشاعر ذاتها، ولهذا فإن لغة الأم، تصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصية صاحبها، وتظل حتى وإن زاحمتها لغات أخرى فيما بعد، هى أقرب اللغات للتعبير عن الخلجات الدقيقة إرسالاً واستقبالاً، على اختلاف ميادين الإرسال والاستقبال.

وهذه اللغة هى التى تختزن المشاعر الأولى، والأفكار الأولى، والتشكيلات الأولى للكون من حول الإنسان، وفيها ومن خلالها يتشكل معنى ولفظ البهجة والحزن والانتصار والانكسار والحب والكراهية والألم والسرور، ومن منظورها تتحدد مفاهيم المباح والمحظور والملاطفة والمخاشنة والرضا والإنكار، وانفتاح أبواب الفهم أو انغلاق مفاتيحه، وإلى هذه المفاهيم الأولى، ترتد أية مفاهيم تالية يمكن للإنسان أن يحصلها من اللغات المكتسبة فى مراحل تالية من العمر، فيترجمها المرء دون إرادة إلى مفاهيم لغة الأم، أو قريب منها لكى تزداد وضوحًا أمام خلاياه الذهنية والنفسية. ويقول علماء النفس: إن هذا النمط من البناء اللغوى هو القادر وحده على تشكيل ما يسمى بالذاكرة الطويلة الأمد، فى مقابل الذاكرة القصيرة

الأمد، التى قد نحتاج إليها لفترة عابرة، ثم ننساها، فنحن عندما نواجه مهمة طارئة فى حياتنا، نحتاج إلى حشد طاقة الذاكرة، لحفظ أرقام معينة، أو الإلمام بتفاصيل خريطة مكان معين، أو الإلمام بخصائص شيء معين، فإن الذاكرة غالبًا ما تحتفظ بهذه الأشياء المؤقتة فى أدراج الذاكرة القصيرة الأمد، لكى تفرغ منها أو تنساها بعد انتهاء المهمة المؤقتة، فنرى أنفسنا بعد حين قد تخلينا عن الاحتفاظ بهذه المعلومات لانتهاء الحاجة إليها، وليس الأمر كذلك بالنسبة للذاكرة الطويلة الأمد التى تحتفظ بالمعلومات أو المفاهيم أو الخصائص الدائمة، فنحن لا نحتفظ بأسماء الألوان فترة ثم ننساها، ولا بأبعاد الجهات الأربع أو الست، لمدة قصيرة، ولا بمعايير الصواب والخطأ واللياقة والخروج عليها فى فترة دون غيرها، وفى هذه الذاكرة الطويلة التى يتشكل وعاؤها الأول من لغة الأم، تدخل كثير من أنواع العلوم والمعارف، وهو ما يدعو كثيرًا من الباحثين الجادين إلى الحديث عن أن توطين المعرفة بالمعنى الحقيقى لا يمكن أن يتم فى غياب لغة الأم، وتلك نقطة سنعود إلى الحديث عنها بالتفصيل عند إثارة قضية اللغة القومية وتوطين المعرفة.

ولعل هذا هو ما عبر عنه الفيلسوف الألمانى هيدجر (ت ١٨٨٩م) حين قال: «إن لغتى هى مسكنى، هى موطنى ومستقرى، هى حدود عالمى الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع».

إن الإنسان، مهما تأثر فى مراحل تالية بلغات أجنبية - ومن حقه أن يستفيد منها ويتأثر بها - سوف يجد نفسه فى اللحظة الحميمة،

أو لحظة الغفلة عن التصنع، يعود إلى لغة الأم من تلقاء نفسه، وتلك خاصة يستغلها علماء النفس وخبراء التجسس فى كشف لحظات التصنع المحكمة، وفى أدبيات الحرب العالمية الثانية يدور الحديث عن جاسوس ألمانى، استطاع أن يتقن اللغة الفرنسية إتقانًا كاملاً، وألا تبدو فى نطقه أية لكنة أجنبية، واستطاع من خلال ذلك أن يتسرب إلى أكثر الأوساط خصوصية فى عالم السياسة والحرب، حتى شك خبراء مكافحة الجاسوسية أنفسهم فى ظنونهم المثارة حوله، وأخيرًا، دلَّهم أحد الخبراء اللغويين على إمكانية استثارة لغة الأم فى لحظة انفعال مفاجئ، فتعقبه أحد المراقبين أثناء سفره فى القطار وهو منهمك فى قراءة الجريدة، ووجه إليه صفعة مباغتة أغضبته فرد عليه بعبارة استنكار بالألمانية قبل أن يشتبك معه، وكان هذا وحده كافيًا لإثارة لغة الأم عنده، ولإدراك أن لغته الفرنسية المتقنة، إنما هى لغة مكتسبة، وأنه فى نهاية المطاف جاسوس، وذلك ما أراد خبير اللغة أن يكشفه، من خلال استثارة لغة الأم، وعلاقتها الحميمة بهوية الفرد.

لغة الأم تشكل عاملاً رئيسيًا فى هوية الفرد المنتمى إليها، وهى من خلال هذا تؤهل الفرد لكى يلتحق بجماعة أكبر تنتمى إلى نفس اللغة، بدءًا من الجماعة الصغيرة فى الأسرة الواحدة وامتدادًا إلى الجماعات الأكبر فى القرية أو الإقليم أو القبيلة أو المنطقة أو الولاية أو الدولة أو غيرها من مسميات التجمعات البشرية، ونحن جميعًا نستشعر أنه ــ حتى داخل اللغة الواحدة ــ تتشكل ملامح للهويات الجماعية الصغيرة من خلال الملامح اللهجية والخصائص الصوتية،

التى تمثل ملامح «لغة الأم» ويجرى الاعتزاز بها والتعرف على الهوية من خلالها، ومن منا لم يستشعر فى القرى المصرية درجات الاعتزاز بهذه الخصائص التى تتميز بها قرية عن قرية أخرى لا يفصل بينهما سوى جدول ماء صغير، أو طريق زراعى يعبره المسافرون، ومع ذلك فإن الخلاف فى التفخيم أو الترقيق أو الإشباع أو الترخيم أو نطق الجيم أو القاف أو الهمزة أو الراء أو استخدام مفردة هنا لا تشيع هناك، كل ذلك يتحول إلى ملامح فى الهوية تكون مصدر اعتزاز وتفاخر، ولا يُسلم أحد أبدًا بأن خصائصه اللغوية المميزة أقل قدرًا من خصائص الآخرين، وكم من المفارقات الاجتماعية تحدث، عندما تتزوج فتاة فى قرية أخرى، ويحدث بالتدريج تقارب الخصائص أو الخضوع للخاصية الغالبة، واستغلال الفروق فى تشكيل النكات الاجتماعية الطريفة، واتساعها عندما تبتعد لغة الأعمام عن لغة الأخوال، ومن منا لا يدرك على الفور بصمة أهل الصعيد، أو أهل بورسعيد أو أهل الإسكندرية وغيرها من المناطق الأخرى، من خصائصهم اللهجية المتميزة، وهى بصمات لا تتصل فقط فى وجداننا بكيفية النطق والتعبير ولكن أيضًا بكيفية التصرف والتدبير، وهذه المفارقات هى المجال الأوسع لإبداع الأعمال الأدبية، والحكايا الاجتماعية، والنكات الفكاهية، وهذا لا يحدث فى لغتنا فقط، وإنما فى كل اللغات الأخرى، تجاه شرائح المتحدثين بها وخصائصهم اللهجية، سواء فى إنجليزية شمال المملكة المتحدة وجنوبها، أو فى فرنسية سكان بلجيكا أو سكان فرنسا مع تنوعات متعددة فى الأقاليم، أو فى إسبانية القارة الأوربية وأمريكا اللاتينية وهكذا فى بقية اللغات.

ولعله من أجل جمع شتات هذه الهويات الصغيرة المتقاربة والمختلفة فى آن واحد، اهتدت اللغات منذ القدم إلى فكرة «اللغة المكتوبة» التى تشكل «بؤرة» تلتقى فيها أشعة «الهويات» اللغوية الصغيرة مكونة منها «هوية» لغوية كبيرة لجميع المنتمين إليها، تاركة فى الوقت ذاته جانبًا من حرية الحركة، والتطور يختلف من لغة إلى لغة، وهو يبدأ عادة فى اللغة المنطوقة الحيّة، ويمتد أثره شيئًا فشيئًا إلى بؤرة التجمع الكبرى فى اللغة المكتوبة، فتتطور بدورها إلى آماد مطلقة فى بعض اللغات، وإلى آماد محدودة نسبيًا فى لغات أخرى كالعربية، لارتباطها بنص دينى مقدس، يحفظها ويمنعها من التغير الكلى ويحميها من الزوال، ولكنها فى نهاية المطاف، شهدت وتشهد تطورًا كبيرًا على مختلف مستوياتها، لا ينكره إلا الذين لم يعطوا لأنفسهم فرصة التأهيل والنظر والتأمل، قبل إطلاق الأحكام غير الدقيقة.

إن هذه اللغة المكتوبة، وما يتبعها من ثقافات وتقاليد، لا تساعد فقط على مزج الهويات الصغيرة فى «هوية» واحدة، ولكنها قد تعمل أيضًا على توسيع حدود الهوية اللغوية، لكى تضم إليها أتباع لغات أخرى، تقلص دورها التاريخى أو ضعف، من خلال الدخول فى حوار أو تنافس حضارى بين اللغات، ويشهد التاريخ العلمى أن اللغة العربية قد كسبت كثيرًا من الجولات، فى مجال الحوار أو التنافس مع اللغات الأخرى، سواء فى جولات الانتشار والتوسع، أو فى جولات وقف الانحسار وصد الهجوم.

ولقد عرفت العربية موجات الانتشار والتوسع منذ عهد ما قبل الإسلام، حيث تدل كثير من الآثار المتناثرة على نمط من انتشار العربية

بدرجة أو بأخرى خارج دائرة الجزيرة العربية، سواء فى المناطق الواقعة على تخوم الإمبراطوريتين الكبيرتين للفرس والروم، أو فى السواحل الشرقية لإفريقيا، حيث تشكلت إمارات عربية هناك منذ القرن الميلادى الأول فى بعض الجزر الساحلية فى زنجبار وما حولها، وسجل المؤرخون الإغريق أن ساحل شرق إفريقيا كان يزدحم بالسفن العربية القادمة من شمال إفريقيا، وكان يكثر الاختلاط والتزاوج بين العرب والأفارقة، ولذلك لم يكن من المستبعد مع بدء الدعوة الإسلامية أن يلجأ عرب مكة من المسلمين المضطهدين إلى أصدقائهم فى بلاط النجاشى ملك الحبشة (وهو مصطلح كان يطلق على معظم شرق إفريقيا). والحوارات التى تدور بينهم وبين مطارديهم من قريش أمام النجاشى، وتنتهى بأن يحمى الملك وفادتهم، ويمنع تسليمهم ويتأثر بالقرآن الذى سمعه منهم ـ تدل فى مجملها على عدم غرابة العربية فى هذه البلاد، إن لم تكن تدل على شيوعها، وليس أقل منها دلالة فى الزمن الأكثر قدمًا، وفود الأعشى على بلاط كسرى إمبراطور فارس وتغنيه بقصائده هناك، ولا وفود امرئ القيس من قبله على بلاط قيصر إمبراطور الروم طالبًا للنجدة والحماية.

والذى لا شك فيه أن العربية قد عرفت لونًا من موجات الانتشار خارج الجزيرة العربية، مهدت للانتشار والاستقرار الواسع العظيم بعد الدعوة الإسلامية، حيث تغلبت على بقايا اللغات المنافسة، وقُدّر لها أن تستقر إلى الأبد فى جانب كبير من الأرض التى انتشرت فيها فى البقعة الجغرافية المتصلة التى تسمى بالعالم العربى الآن، وأن تنحسر جزئيًّا أو كليًّا عن جانب آخر منها.

ولا شك أن ارتباط العربية بالدين الإسلامى ساعد كثيرًا على سرعة وازدياد رقعة هذا الانتشار، لكن مبدأ معينًا من مبادئ هذا الدين، يندرج فى إطار التسامح واتساع النظرة، أوجد رابطة قوية بين اللغة والهوية الثقافية، ويتمثل ذلك المبدأ فى الأثر النبوى الشريف: «**ليست العربية من أحدكم بأبيه ولا بأمه، وإنما العربية لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى**». ولقد حوّل هذا المبدأ صفة «العربية» من كونها صفة تنتمى إلى مجال العصبية والقبلية والنسب، إلى كونها صفة تنتمى إلى مجال الثقافة واللغة، وليس بالضرورة إلى مجال الدين، وفتح المجال أمام شعوب كثيرة أن تدخل طواعية تحت مظلة هذه الهوية الجديدة، دون أن تكون مضطرة إلى تغيير عقائدها، مع الاحتفاظ بكل مزايا الانتماء إلى «هوية» نبيلة، والتمتع بحقوق المواطنة، وكان أبرزها فى المجال الثقافى الذى نحن بصدد الحديث عنه، فتح الأبواب على مصاريعها أمام المشاركة فى التغيير الثقافى الكبير الذى شهده العالم من خلال اللغة العربية، من خلال المنتمين «الجدد» إليها، سواء عبر الوظائف الكبرى للكتاب والوزراء أو الإنتاج الغزير للمترجمين والعلماء والمبدعين فى شتى المجالات، بلسان عربى مبين، أصبح يشكل الهوية والموروث الثقافى والفكرى، أيًّا كانت الأصول العرقية للمشاركين فيه.

على أنه من الحق أن يقال: إن هذه الموجة الواسعة من تشكيل الهوية من خلال اللغة مثّلت ظاهرة تاريخية فريدة، كادت العربية أن تتميز بها على كل اللغات، على الأقل فى مجال اللغات القديمة، فهذا النمط من الوحدة اللغوية الكبيرة المستمرة لم تستطع أن تخلقه لغة

عالمية كبرى كاللغة اليونانية، مع أن رقعة نفوذها السياسى، امتد فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد إلى مناطق واسعة عبر البحار، فانتشر الإغريق على شواطىء البحر الأسود والبسفور وبحر مرمرة والدردنيل، وجنوب إيطاليا وصقلية، وجنوب فرنسا وإسبانيا وشمال إفريقيا، وأنشأوا عددًا من الحواضر الثقافية كانت الإسكندرية فى طليعتها، وتركوا بصماتهم الثقافية، حتى على من هزموهم عسكريًّا، كما حدث مع الرومان الذين غزوا اليونان عسكريًّا عام ١٤٦ ق . م. ولكن ثبت فيما بعد أن اليونان هم الذين غزوهم ثقافيًّا من خلال تأثيرهم البالغ فى الثقافة اللاتينية، ومع ذلك فلم تنجح اللغة اليونانية فى أن تستقر فى المناطق التى بلغتها، وأن تشكل منها هوية ثقافية لغوية واحدة كما صنعت العربية فيما بعد.

وكذلك الشأن مع اللغة اللاتينية، التى بلغت شأوًا واسعًا فى التطور، انتقل بها من كونها لغة محلية لروما القديمة، إلى كونها لغة نموذجية لمعظم مناطق الإمبراطورية الرومانية، ومع ذلك فقد بدأت تتراجع أمام عامياتها منذ القرن الثامن الميلادى، وتفتت إلى لغات من خلال تطور هذه العاميات مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية، وتراجعت اللاتينية القديمة إلى ردهات الكنائس، وقاعات ترتيل الصلوات الدينية.

على أنه من الحق أن يقال أيضًا: إن هذا النجاح الكبير للعربية فى مرحلة الاتساع والانتشار، كانت تقف وراءه جهود مخلصة، وخطط علمية محكمة، إذا كانت كثير من تفاصيلها غائبة عنا، فإن نتائجها الباهرة تدل عليها، وينبغى أن تكون داعية لنا لبذل مزيد من

الجهود فى التعرف عليها والتأسى بها فى المحافظة على الإرث العظيم الذى تركه لنا السلف، ونحن لا نكتفى فقط بالتفريط فيه، ولكن يحرص بعضنا على المشاركة فى إضاعته وتبديده.

إن خطوة هامة مثل «تعريب الدواوين» فى عصر عبد الملك بن مروان تكاد تمثل النقيض الإيجابى لخطة «تغريب المعاملات الدولية والمحلية» فى عصرنا، ولنا أن نتصور مدى الجهد الذى يتطلب قيام آلاف الموظفين فى أرجاء الإمبراطورية الواسعة وملايين المتعاملين معهم بتغيير لغة التعامل، من لغات قديمة ذات مصطلحات وظيفية راسخة، ونظم حسابية متداولة، إلى لغة كالعربية لم يكن لها تاريخ فى الوظائف والدواوين قبل سنوات قليلة معدودة، ولنا أن نتصور أيضًا مدى الفائدة التى تعود على اللغة العربية من ذلك الانتشار الواسع، والتعود على الاستجابة للمطالب الديوانية وللحياة اليومية، بدءًا من تحرير رواتب الموظفين، وشكاوى المتظلمين إلى توقيع الوثائق والمعاهدات بين الدولة الإسلامية وأقاليم الأرض المتسعة، وكيف ستنشط جيوش من شباب المتعلمين من الأصول غير العربية لإتقان العربية؛ للحصول من خلال ذلك على وظائف مرموقة فى الدولة، خاصة أن الأبواب كانت مفتوحة أمامهم دون حواجز عنصرية، وقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ذاتها، مثل عبد الله بن المقفع، ورأس بعضهم جهاز الترجمة، مثل حنين بن إسحاق، بل كيف نشط آلاف المترجمين فى البلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية الإسلامية؛ لكى يتعلموا العربية ويتعاملوا معها، باعتبارها «اللغة الرسمية» لدولة الخلافة الإسلامية.

و لم يكن أمر التعريب سهلاً أمام منافسة لغات قوية عريقة مثل الفارسية والسريانية والقبطية، خاصة أن بعضها كان قد ارتبط بممارسة الشعائر الدينية، ولا شك أن هناك كثيرًا من وقائع الحوار أو المقاومة بين اللغات الآفلة واللغة الصاعدة، ويذكر ابن النديم فى كتاب «الفهرست»، واحدة من هذه الوقائع تتصل بوقائع «تعريب الدواوين» فى العراق فى العصر الأموى، وكانت لغة التعامل به من قبل، هى الفارسية، فيقول: «ثم نُقل الديوان، وكان باللغة الفارسية إلى العربية أيام الحجاج، والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم، وكان والده من سجستان يعمل فى بلاط الحجاج، يخط بين يدى كاتبه (واسمه زاد انفروخ) بالفارسية والعربية، فقال صالح له يومًا: والله لو شئتُ أن أحول الحساب إلى العربية لحولته. فقال له: فحَوِّلْ منه أسطرًا حتى أرى. ففعل، فلما مات زاد انفروخ. ولَّى الحجاج صالحًا مكانه، وأمره بأن يواصل محاولة التعريب، وعلمت الفرس بذلك، فأغروه ببذل مائة ألف درهم له، على أن يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية، فأبى، وقال له أحدهم: «قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية».

ولا شك أن حوارات مماثلة حدثت خلال المواجهات الحضارية بين العربية واللغات الأخرى فى أقاليم الخلافة الإسلامية الواسعة، ونقول: إنها مواجهات حضارية؛ لأنها كانت تتم من خلال التفاعل، وليس من خلال قوانين الإجبار، وكان التحول عندما يتم يأتى استجابة لواقع الحال، كما حدث مع اللغة القبطية فى مصر، التى تراجعت بعد الفتح الإسلامى شيئًا فشيئًا عن أن تكون لغة التخاطب

والثقافة، وحلت محلها العربية، حتى برزت الحاجة إلى ترجمة الإنجيل للغة العربية لتسهيل أداء المواعظ الدينية به، ثم انتهى الأمر بأن أصدر البطريرك القبطى غبريال بن تريك، فى القرن الثانى عشر الميلادى (١١٣١ ـ ١١٤٥) بعد نحو ستة قرون من دخول العربية إلى مصر، أصدر أول قرار يقضى باستخدام اللغة العربية فى الخدمة الكنسية وتلاوة القداس، استجابة لحاجة المصلين الأقباط فى الكنائس، الذين لم يعودوا قادرين على متابعة الشعائر الدينية باللغة القبطية.

إن هذه التحولات اللغوية لم تعمل أبدًا على محو الخصائص الثقافية أو الدينية أو الفكرية لمن انضوى تحت لوائها ممن كانوا ينتمون إلى لغات أخرى، وإنما خلقت هوية ثقافية كبرى من خلال اللغة العربية، وهى هوية تفاعلت داخلها، وزادت من تماسكها كل ألوان الحوارات والخلافات داخلها، فكتب بها علماء وأدباء ومفكرون من كل الأجناس والديانات، واتسعت لآرائهم جميعًا، ولم تعجز عن رصد حماس المؤيدين، وشك المترددين، وتجديف المنكرين، وإغراق الصوفية، ورموز الشعراء ومحاورات الفلاسفة، ومعادلات الرياضيين الكيميائيين والصيادلة والأطباء، وعقائد أتباع ومُفكرى الديانات، وكانت قادرة، من خلال هذه الروح الجماعية، أن تواصل مسيرتها فتستوعب وتتغذى وتتمثل، وتسقط الأوراق الذابلة لتخلفها أوراق أخرى أكثر ملاءمة وحيوية ونضارة، ولكنها تحافظ على صلابة الجذور وسلامة الهيكل، معتمدة على جهود حملة هذه الهوية الثقافية العريقة فى حمايتها من الأعشاب الضارة، والحشرات الزاحفة أو الطائرة، والإهمال القاتل.

وفى الوقت الذى يحرس فيه حملة هذه الهوية شجرتهم، فإنها تظلهم وتحميهم وتمنحهم من الشخصية الثقافية ما يعطيهم كيانًا جديرًا بالاحترام والثقة فى عيون الآخرين، ويبعد عنهم شبح التسكع أو التطفل تحت أشجار الآخرين، بوهم أننا سنصير منهم، عندما نفرط فى لغتنا، ونحاول التحدث بلغتهم، أو نتنازل عن هويتنا، ونحاول تقليد هويتهم، وهُو وَهْمٌ يدفعه كبار مفكرى الغرب أنفسهم وفى مقدمتهم المفكر الشهير صموئيل هنتجتون صاحب نظرية صدام الحضارات، فقد نشر سنة ١٩٩٦ دراسة له بعنوان «الغرب متفردٌ وليس عالميًا west unique not universal» يقول فيها: «إن شعوب العالم غير الغربية، لا يمكن لها أن تدخل فى النسيج الحضارى للغرب، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأمريكية، واستمعت إلى الموسيقى الغربية، فروح أى حضارة هى اللغة والدين، والقيم والتقاليد والعادات، وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والمسيحية الغربية، والأصول اللاتينية للغات شعوبها، والفصل بين الدين والدولة، وسيادة القانون، والتعددية فى ظل المجتمع المدنى والهياكل النيابية، والحرية الفردية».

ليس أمامنا مفرٌّ إذن من العودة إلى إدراك أهمية الربط بين اللغة والهوية، وإدراك أن المحافظة على إحداهما محافظة على الأخرى، وأن إنقاذ إحداهما إنقاذ للأخرى، ولابد أن ندرك أن الضعف والتراخى إذا كانا نتيجة طبيعية لظروف تاريخية وحضارية متراكمة، فإن التنشيط والتجديد واستعادة التوازن إنما يتم من خلال العزم

والتخطيط، ورسم السياسات، وإصدار القرارات وتنفيذها، على مختلف المستويات العلمية والتعليمية والاقتصادية والإعلامية والإعلانية، وتنسيق الجهود المتناثرة، وليس من المحال، عندما يتم بذل الجهد المناسب، أن تعود حالة القوة والانتعاش لكل من اللغة والهوية، حتى وسط أجواء سيطرة ثقافة العولمة، ونزعة الحرب المعلنة ضد اللغات الأخرى، وفى مقدمتها اللغة العربية، رمز الهوية التى يراد ألا تقوم لها قائمة وتهدد مصادر الثروة، أو تحد من حرية الحركة المطلقة أمام مطامع الصهيونية العالمية وحماتها المتطرفين.

ويمكن أن نشير – بإيجاز – إلى تجربتين معاصرتين، تم فيهما الاعتماد على اللغة لإنقاذ الهوية المشتتة، أو لحماية الهوية من التداعى، وهما التجربتان اللتان تمتا مع اللغة الفرنسية، واللغة العبرية.

وتجربة إنعاش اللغة الفرنسية وربطها بنمط من الكيانات الثقافية والمعنوية والاقتصادية والسياسية، لا تزال قيد التشكيل أمام أعيننا، ولهذا فإن من المفيد أن نتأمل فى بعض جوانب التجربة، لنرى كيف يخطط الآخرون لإنقاذ لغتهم وهويتهم، وكيف يتقدمون خطوة خطوة وفقًا لتصور مدروس، وهدف واضح.

ومن المعروف أن اللغة الفرنسية كانت مع الإنجليزية إحدى اللغتين الكبيرتين اللتين كادتا تقتسمان النفوذ فى العالم، فى فترة المد الاستعمارى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وأن الفرنسية خلال هذه الفترة سادت فى كثير من الدول التى كانت تحتلها فرنسا فى إفريقيا وآسيا وبعض مناطق القارة الأمريكية وجزر المحيط، لكنها سادت كذلك كلغة ثقافة وفنون، وكلغة للطبقات الراقية والمنتمين

إلى البلاط فى كثير من البلاد الأخرى التى لم تكن خاضعة للنفوذ الاستعمارى الفرنسى المباشر، ومن بينها مصر التى كسبت فيها الثقافة الفرنسية جولات كثيرة للمنافسة قبل البعثات التى أرسلها محمد على فى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت حملة العلماء الفرنسيين المرافقة لنابليون، والتى يقودها مؤلفو كتاب «وصف مصر» الشهير ومكتشفو رموز لغة الفراعنة، قد مهدت للتأثير الثقافى الفرنسى فى مصر على امتداد القرن التاسع عشر، وهو تأثير لم يستطع الاستعمار الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ أن يوقفه، فامتد التأثير على خريطة القرن العشرين مع نفر من الساسة والأدباء المشهورين من أمثال مصطفى كامل، وهيكل، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وتيمور، وشوقى، وحافظ، والمنفلوطى، وغيرهم من مشاهير العصر.

لكن مد النفوذ السياسى والثقافى الفرنسى بدأ فى التوقف والتراجع، بعد ظهور القوة الأمريكية بشكل واضح فى النصف الثانى من القرن العشرين، مما جعل كفة اللغة الإنجليزية وتأثيرها الثقافى أكثر رجحانًا، ومع الانكماش الواضح للمستعمرات الفرنسية، وعودة الجنود الفرنسيين إلى بلادهم بدأ التخوف من تخلخل الرابطة اللغوية الفرنسية بين فرنسا الأم ومناطق نفوذ اللغة والثقافة الفرنسية، وازداد الأمر وضوحًا مع بداية ظهور ثقافة العولمة والرغبة فى فرض الثقافة الأمريكية ولغتها على أرجاء العالم، وفى هذا المناخ تم إنعاش مصطلح فرنسى قديم، كانت قد عرفته الفرنسية فى القرن التاسع عشر وهو مصطلح «الفرنكفونية» la francophonie

وعاد إلى الظهور فى فترة الستينيات فى القرن العشرين على يد مجموعة من المتكلمين بالفرنسية خارج فرنسا، من أمثال سنجور فى السنغال، وسيهانوك فى كمبوديا، وبورقيبة فى تونس، ودعوا إلى تشكيل هوية لغوية ثقافية من المتحدثين بالفرنسية فى أرجاء العالم، وأسفرت المناقشات عن عقد أول مؤتمر للفرانكفونية سنة ١٩٦٩ فى نيامى الإفريقية، برئاسة وزير الثقافة الفرنسى أندريه مالرو، ومنذ ذلك التاريخ بدأ التخطيط الدقيق لتحديد أبعاد المشكلة اللغوية الفرنسية وأماكن المتحدثين بها، ومواطن استخدامها الكلى أو الجزئى، المفرد أو المشترك، وأسفرت الإحصاءات عن أن الفرنسية يتم استخدامها فى إحدى وخمسين دولة وتسعة وثلاثين إقليمًا فى أرجاء العالم، وهى بذلك تأتى تالية للإنجليزية التى يتم استخدامها فى تسع وخمسين دولة وخمسين إقليمًا، ومواطن الفرنسية موزعة على كل القارات فى بلجيكا وبنين وسويسرا وبوركينا فاسو وشمال إفريقيا وجزر القُمر والكونغو وجيبوتى ولوكسمبورج والنيجر ومصر والجابون وساحل العاج.. إلخ، وصنفت الاستخدامات بين بلاد تستخدم فيها الفرنسية باعتبارها لغة الأم مثل فرنسا وكندا وبلجيكا وسويسرا، والمتحدثون بالفرنسية من هذه الفئة حوالى ثمانين مليونًا، يمثلون ٨٢٪ من السكان فى فرنسا و٢٣٪ فى كندا و٤١٪ فى بلجيكا و١٨٪ فى سويسرا و٥٨٪ فى موناكو، وإذا أضيف إليهم من ينتمون إلى هذه الفئة فى المستعمرات القديمة، فى إفريقيا وآسيا وجزر المحيط، يصل العدد إلى نحو مائة وعشرة ملايين. ولنلاحظ أن الذين يتحدثون العربية كلغة أم يقتربون من ثلاثة أضعاف هذا العدد.

ثم تقف الإحصاءات الدقيقة أمام الذين يتلقون تعليمهم بالفرنسية، جزئيًا أو كليًا فى أرجاء العالم، فتصل بهم إلى نحو مائة وخمسين مليونًا، ثم تتبع الذين يستخدمون الفرنسية فى الحياة التجارية أو الفنية أو القضائية أو العسكرية أو غيرها من مجالات الحياة، فتصل بهم إلى نحو ٥٠٠ مليون متكلم للفرنسية بدرجة أو بأخرى.

ولا تقف الجهود التخطيطية عند مجرد الإحصاءات، وإنما تتتبع كل فئة من حيث درجة الزيادة أو النقصان، فترصد زيادة إقبال الطلاب على دراسة الفرنسية كلغة أجنبية فى كل من فنلندا وإيرلندا والنرويج والسويد والنمسا وبلغاريا ومصر وتركيا وإسرائيل والإمارات وبيرو وأمريكا وكندا، وتصل الزيادة ذروتها فى إفريقيا الفرنسية، والمغرب رغم جهود التعريب بها، وعلى هذا النحو يتم رصد الحالة الواقعية للظاهرة من خلال الدقة الإحصائية، ليتم وضع الحلول، على أساس التشخيص العلمى. ولا أدرى إن كانت لدينا نحن إحصاءات دقيقة مماثلة بالنسبة للغة العربية، وإذا كنا نعلم كم عدد الذين يتحدثونها كلغة أم أو كلغة دينية، أو الذين يدرسونها أو يدرسون بها فى مختلف أرجاء العالم، وكم عدد المتعاملين معها على مستويات مختلفة وأماكن مختلفة.

وعندما انتهى حماة الفرانكفونية من تجسيد الظاهرة أمامهم بدأوا يشرعون فى اتخاذ الوسائل والخطط اللازمة لمعالجتها، والاهتمام بها على أعلى المستويات، فدعا رئيس جمهورية فرنسا ميتران إلى عقد أول مؤتمر لرؤساء الدول الفرانكفونية فى باريس سنة ١٩٨٦، وتتابعت بعده مؤتمرات القمة الفرانكفونية لتعقد فى كندا

والسنغال وبنين وفيتنام ولبنان وبوركينا فاسو، وتشكلت من خلال هذه المؤتمرات مؤسسات فعالة فى مختلف المجالات لحماية اللغة الفرنسية، والعمل على انتشارها ودفع المخاطر عنها مثل:

- المركز الفرانكفونى لتوطين استخدام الفرنسية فى البحوث العلمية.
- المؤسسة الفرانكفونية الإعلامية المرئية T.V.5.
- هيئة مؤتمر وزراء الرياضة والشباب للدول الفرانكفونية.
- هيئة مؤتمر وزراء التعليم العالى، والبحث العلمى.
- الجمعية الدولية للبرلمانيين المتحدثين بالفرنسية.
- الاتحاد الدولى للصحافة الناطقة بالفرنسية.
- اللجنة العليا للدفاع عن اللغة الفرنسية والعمل على توسيع انتشارها.
- الاتحاد الدولى للمدرسين الناطقين بالفرنسية.
- الرابطة الدولية للعُمد ورؤساء المدن الناطقة بالفرنسية.
- المجلس الأعلى للفرانكفونية، وهو مؤسسة تعمل على رصد نقاط التلاقى بين المجتمعات الناطقة بالفرنسية، وهى ذات صوت بارز فى الحوار العالمى، ويتولى رئاستها منذ سنة ١٩٩٧ سكرتير عام الأمم المتحدة السابق، الدكتور بطرس غالى.

إن مثل هذه المؤسسات التى تنتشر فروعها فى أكثر من خمسين دولة تحرص على سياسة مركزية واحدة، قائمة على التخطيط وعدم إهدار الجهود الفردية أو تكرارها، وتكتسب قراراتها سلطة التنفيذ، كما حدث مع القرار الذى تبنته الجمعية الوطنية الفرنسية سنة ١٩٩٤، والذى ينص على عدم السماح بعقد المؤتمرات العلمية

المتحدثة بالإنجليزية على الأرض الفرنسية، كما وضع البرلمان قائمة بالكلمات السوداء التى يحظر استخدامها فى لغة الإعلام والإعلان.

ويثور التساؤل من جديد: إلى أى مدى نمتلك نحن جانبًا من المؤسسات التى تعمل على خدمة اللغة، وتكتسب قراراتها قوة التنفيذ، مقارنة بما يحدث فى التجربة الفرانكفونية؟ وهل يمكن أن يحل عندنا التخطيط والتنسيق العلمى، فى مواجهة المشكلة، محل اللامبالاة، أو جهود النوايا الطيبة غير المنسقة فى أحسن الأحوال؟ وهل يمكن أن نعمل على إنقاذ هويتنا من خلال لغتنا كما يحاول أصحاب الفرانكفونية؟

إن انعدام الدراسات التشخيصية العلمية الدقيقة عندنا عن حالة اللغة العربية ودارسيها فى الداخل والخارج ـ يشكل الخطوة الأولى فى تشكيل تصور غامض ومشوش حول هذه القضية الخطيرة فى حياتنا، والمتصلة اتصالاً مباشرًا بهويتنا وموقعنا على خريطة العالم المعاصر، ومستقبلنا الذى نتحرك فى اتجاه مخاطره دون وعى كاف بجبال الثلج الضخمة التى ترصد مجرى السفينة المندفعة، وتتداخل ألوانها مع ألوان المياه التى تجرى فوقها السفينة، والدراسات القليلة التى تحاول أن ترصد واقع الحال، كثيرًا ما تقع فى المجاملة ومحاولة «ستر العيوب» وعدم كشف المستور، خاصة إذا كانت تتم تحت إشراف جهات رسمية يهمها أن يبدو الأمر فى قطاعاتها وكأن كل شىء «على ما يرام»، وحتى عندما تصدر الدراسات وبها بعض الإشارات إلى المخاطر المحتملة وبعض التوصيات المفيدة، فإن الهوة الواسعة بين التوصيات وبين مجرد التفكير فى قراءتها من المسئولين التنفيذيين ـ تبدو هوة

شديدة الاتساع، وحتى عندما تصل بعض أصدائها إلى آذان المسئولين، فإن القاعدة الذهبية فى التعامل معها هى قاعدة «أذن من طين، وأذن من عجين»، وربما كانت قرارات مجامع اللغة العربية، وتوصيات المجالس القومية المتخصصة هى خير شاهد على ذلك.

وفى غياب سياسة قومية لغوية، استشرت فوضى «التغريب» على كل المستويات بدءًا من تصريحات وخطب المسئولين فى المحافل الإقليمية والدولية، والتى تجىء فى كثير من الأحيان بلغات أجنبية على عكس الأعراف الدبلوماسية السائدة، والتى يحرص من خلالها كل مسئول على الحديث بلغة قومه، فلا نجد دبلوماسيًّا إسرائيليًّا يُصَرح بغير العبرية، ولا إيرانيًّا يتحدث بغير الفارسية، وتجىء خطب الصينيين والروس بلغاتهم الأصلية، ومع أن العربية واحدة من لغات العالم الأساسية المعترف بها فى المحافل الدولية، فإن المسئولين العرب هم أكثر الناس تطوعًا بالتخلى عن حقهم وحق لغتهم عليهم فى هذا المجال.

وتبلغ الفوضى مداها فى عالم التجارة والاقتصاد والسياحة، وعالم الأزياء والمأكولات والمشروبات، ويكفى أن ينظر الإنسان إلى أسماء محلات بيع المأكولات والمشروبات والملابس؛ ليبدو له وكأن العربية عاجزة عن أن تجد اسمًا لهذا النوع من النشاط، مع أن اللغات الأوربية استعارت منها فى الأصل اسم المكان الذى يمارس فيه هذا النشاط فكلمة magazin فى الفرنسية مأخوذة من كلمة «مخزن» العربية، وهى شديدة الشيوع فى الفرنسية المعاصرة، أما نحن فقد فضلنا كلمات أخرى مثل «سوبر ماركت» و«مول»

و«كوفى شوب» و«شوبنج سنتر»، وغيرها من المصطلحات الوافدة، إضافة إلى آلاف الأسماء الأجنبية، التى تستخدم دون وعى، ودون حاجة، حتى إن «الحاج سُكَّر» أطلق على محله الصغير، فى الحى الشعبى الذى يسكن فيه - اسم «شوجر» حين وجد أن جاره «شحتة» الترزى أطلق على محله اسم «شحتة كاجوال».

وتجتاح هذه الظاهرة المدن العربية، حتى لتحس فى كثير منها ـ إلا ما عصم الله ـ أنك تسير فى مدن الرطانات والمحاكاة الساذجة، التى تختلط فيها الكلمات الأجنبية بالحروف العربية، وكأننا بمحاكاة الكلمات نحاكى التقدم فى ذاته، وإذا نظرنا إلى المجهودات الإيجابية المشكورة، فإننا نجدها تفتقد كثيرًا من أوجه التنسيق والتنظيم بين المؤسسات والهيئات التى تقوم بها، فى شرق العالم العربى أو غربه أو شماله أو جنوبه، سواء تمثلت فى المجامع اللغوية أو فى مكاتب التعريب أو فى الجامعات والمعاهد المتخصصة، أو فى مؤسسات تعليم اللغة للأجانب، أو جمع التراث العربى وتحقيقه، أو الدخول بذلك التراث إلى عالم شبكات المعلومات والأقراص المضغوطة، أو محاولات تيسير اللغة للتعامل مع عالم الحاسوب، وكلها مجهودات طيبة فى ذاتها، لكن ينقصها هذا النمط من التنسيق الذى رأيناه فى سياسة الفرانكفونية لحماية اللغة الفرنسية، ونستطيع بقدر ميسور من هذا التنسيق أن نضاعف من نتائجه الإيجابية، ونعمل على صد كثير من المخاطر عن اللغة العربية والهوية القومية.

وإذا كانت تجربة إنعاش الفرانكفونية، قد وضعت أمام أعيننا، تصورًا لإمكانية التخطيط العلمى وتشكيل الآليات التنفيذية لإنعاش

لغة عريقة، والمحافظة على مظلة ثقافية لغوية للمنتمين إليها، والأمل المستقبلى فى أن يؤدى التخطيط المحكم والتنفيذ والمتابعة إلى تحقيق الأهداف المتوخاة، فإن الوقوف أمام تجربة إحياء اللغة العبرية فى العصر الحديث يضعنا أمام أمل صعب تم إنجازه، وجهد بشرى خارق يستحق كل التقدير والإعجاب، ويحق للذين ينتمون إلى هذه اللغة أن يصفوه بالمعجزة، كما صنع البروفيسور يهوشواع بلاو الأستاذ فى الجامعة العبرية، فى دراسة له صدرت سنة ١٩٧٦ بعنوان «إحياء اللغة العبرية وإحياء العربية الفصحى» ونشرت عرضًا له مجلة لقاء العبرية سنة ١٩٨٥، وقد تعرض بلاو فى معرض حديثه عن اللغتين إلى عبارة لمحمود تيمور يقول فيها: «لا جرم أن بقاء الفصحى على هذا النحو يكاد يُعد معجزة فى عالم اللغات، ولكنها معجزة لها مسوغاتها الطبيعية»، ويعلق بلاو قائلاً: «إن إحياء العبرية هو بمثابة معجزة أكبر بكثير من معجزة إحياء العربية».

ولعل حديث المفكر اليهودى يكون شاحذًا لهممنا التى تراخت كثيرًا، قياسًا إلى عزائمهم فى إحياء اللغة القومية، فلقد ظلت العبرية لغة شبه دينية على امتداد قرون طويلة، لا تستخدم إلا فى أضيق نطاق حتى إن اليهودى الكبير موسى بن ميمون وضع جميع مؤلفاته باللغة العربية، فيما عدا مؤلفًا واحدًا كبيرًا وضعه بالعبرية، عن أصول الشريعة اليهودية وقواعدها.

لكنه منذ أواسط القرن التاسع عشر، برزت مجموعة من الشباب اليهود الأوربيين شكلت حركة لإحياء اللغة العبرية، كان من أبرز قادتها أليعازر بن يهودا، الذى أطلق شعارًا، ربما نكون فى حاجة إلى

التذكير به واعتناقه الآن، وهو شعار: «لا حياة لأمة بدون لغة»، ودعا إلى إحياء اللغة العبرية لدى الأجيال الجديدة، من خلال جعلها لغة التخاطب فى الحياة اليومية، ولكنه أمر بدا صعبًا إن لم يكن مستحيلاً، حتى بالنسبة لغلاة المتشددين من اليهود؛ إذ كيف يمكن إحياء لغة ميتة قديمة لا يجيدها إلا قلة من المتخصصين، ولا تستخدم إلا فى الشئون الدينية، وتفتقر إلى معظم مفردات الحياة المعاصرة، ولا يصبر على الكلام بها رجال الدين اليهودى أنفسهم، فكيف تصير لغة الأطفال والفتيان والفتيات والرجال والنساء، وتستخدم فى الصحافة وتدريس فروع المعرفة وإجراء البحوث العلمية، وكيف يمكن تحقيق هذا الحلم الخيالى، بخاصة أن اليهود وقتها كانوا موزعين على نحو أكثر من مائة دولة على خريطة العالم، ويتكلمون نحو ثمانين لغة حية، ليس فيها العبرية إلا فى الصلوات والشعائر الدينية لمن يتابعها منهم؟

ومع ذلك كان أليعازر بن يهودا متمسكًا بفكرته رغم سخرية أصدقائه منه، وبدأ فى اتخاذ الخطوات العملية لها، فقرر الهجرة إلى فلسطين، مع زوجته وأسرته سنة ١٨٨١، وأنشأ أول بيت يهودى، تفرض فيه اللغة العبرية لغة للتخاطب والحديث فى كل الشئون لكل أفراد الأسرة، وساعده على ذلك أفراد أسرته، رغم سخرية كل الناس منه، ولكنه ظل متمسكًا برأيه، عاملاً على إنجاحه أربعين سنة متصلة.

أسس رابطة للمتكلمين بالعبرية فى فلسطين، وصارت داره منتدى يلتقى فيها الشباب اليهودى، ويتحمسون للفكرة يومًا بعد يوم، ويمارسونها باستخدام اللغة فى لقاءاتهم، وأصدر مجموعة من الصحف باللغة العبرية فى القدس، وجعل بعضها مخصصًا للأطفال، وحرص

على أن يسمى أبطال القصص بأسماء عبرية، وعكف على إنجاز مشروع كبير لقاموس اللغة العبرية القديمة والجديدة، فانكب ينقب عن كنوز اللغة فى كتب الأقدمين فى العهد القديم والتلمود، والأدب العبرى فى الأندلس، واللغات السامية، التى انتقى منها مواد طوعها للاستعمال الحى، وكان يلجأ إلى ابتكار المصطلحات الجديدة عندما لا تساعده كتب التراث، وقد استطاع فى حياته أن ينجز تسعة مجلدات كبيرة من هذا المعجم وأكمله تلاميذه من بعده إلى ستة عشر مجلدًا.

وأثمرت دعوته، فاستيقظ اليهود لإنشاء مدارس حديثة تدرس كل موادها بالعبرية، وتهتم بمراحل اللغة فى العهد القديم والمراحل التالية له وتاريخ بنى إسرائيل والجغرافيا والرياضيات والطبيعات وكلها بالعبرية، وقد كان حرصهم فى كتب الجغرافيا، على ألا يذكر اسم أى مكان إلا باللغة العبرية، ويقول أحد الباحثين الإسرائيليين «تسيبورا شارونى» فى كتاب التوجه القومى فى برامج التدريس باللغة العبرية: «من منا يذكر كتابًا واحدًا فى الجغرافيا فيه اسم جبل باللغة العربية؟ الأسماء العربية لا وجود لها»، وهى نزعة لاتزال تشكل ركنًا رئيسيًّا من السياسة الإسرائيلية فى تسمية الأماكن الفلسطينية بأسماء عبرية، والحرص على استخدام هذه الأسماء فى كل مواقع الإعلام حتى تثبت فى الأذهان ويتعود عليها الآخرون، حتى فى المناطق التى لا يوجد فيها إلا العرب الذين يطلقون عليهم فى أفضل الأحوال «عرب إسرائيل»، ومن هنا فإن القدس هى أورشليم، والضفة الغربية هى السامرا، وغزة يهودا، والخليل حبرون، ونابلس شكيم وبئرسبع هى بئر شيفع.. وهكذا.

وانطلاقًا من دعوة أليعازر بن يهودا، بدأت الجماعات اليهودية، تصدر صحفًا بالعبرية فى أوربا مثل صحيفة «هاتسفير» و«هاميلتش» إلى جانب صحف، تصدر بلغة «الإيديش» وهى اللغة التى يتداولها اليهود فى أوربا الشرقية.

إن المحاولة العبرية الناجحة جسدت أبرز محاولة لتماسك الهوية من خلال لغة يتم إحياؤها من العدم، وتوجيهها نحو هدف معين، ولقد كان من الصعب إيجاد هوية متماسكة للمتفرقين فى مائة دولة والمتحدثين بثمانين لغة، وكانت فكرة أليعازر مركزة فى شعاره: «لا حياة لأمة بدون لغة»، وقد وضع فكرته التى بدت خيالية فى حينها موضع العزم والإصرار والتطبيق، فأصبحت العبرية الآن شديدة الحيوية، تدرس بها كل العلوم الحديثة فى الكيمياء والفيزياء والصيدلة والطب والهندسة والإحصاء فضلاً عن العلوم الإنسانية بكل فروعها، وتعقد بها كل المؤتمرات، لا يتمحكون فى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الروسية أو الإسبانية، مع أن كثيرًا منهم يجيدون هذه اللغات، ويصلون فى هذه العلوم إلى مدى متقدم، يجعل جامعاتهم فى صدارة الجامعات المتقدمة فى العالم، ويتركوننا نحن بإنجليزية عرجاء، بشهادة خبراء العالم، ندرس المعرفة المتقدمة فلا ندرك منها إلا القشور، ونعود إلى المعرفة الإنسانية، فلا نكلف أنفسنا بمجرد إجادة لغتنا، لكننا نقترح أن نعمل فيها معاول الهدم والتغيير، دون أى معرفة كافية ولا تقدير للعواقب الوخيمة على اللغة والهوية.

فخ القطيعة مع الماضي

تحت وطأة الانفعال، هتف المعلم نونو أحد أبطال رواية «خان الخليلي» لنجيب محفوظ: «ملعون أبو الدنيا» ولم نستطع أن نناقشه في المدلول الحرفي لمفردات الجملة التي ظل يرددها على امتداد الرواية، ولا أن نسأله: من هو أبو الدنيا، ومن هي أمها، وكيف نوجه اللعنة إلى هذا الأب، وهل تنسحب هذه اللعنة بالضرورة على الدنيا نفسها وهي التي يصب عليها غضبه؟! بل وما معنى اللعنة ذاتها؟

لكننا مع ذلك استوعبنا من العبارة دلالتها العامة التي توحي بها، بصرف النظر عن دلالة مفرداتها، وهي اللامبالاة والتبرم، ولم نشأ أن نستوقف المعلم نونو أكثر من هذا لكي ننشغل معه ببناء الحدث الروائي الذي يساهم في نموه وتطوره.

ومن الصعب أن نتبع نفس المنهج في العبارات التي ترد على ألسنة وأقلام الكتاب والمفكرين، فنأخذ مدلولاتها بالفحوى العام، أو نقول: إنها كتبت تحت وطأة الانفعال، ويزداد الأمر دقة وحرجًا عندما يختار المؤلف عبارة أو عبارتين عنوانًا لمقال

أو كتاب، فمن شأن العنوان أن يصفى الفكرة فى أبرز خصائصها وأكثرها إيجازًا ووضوحًا، وذلك شأن شائع فى كل لغات الأرض منذ عرف الناس عناوين الكتب المقدسة والأسفار ودواوين الحكم إلى مبادئ الفلسفة والمنطق ومداخل العلوم والفنون وخواطر الشعراء والكتاب وكتابات علماء السياسة والاجتماع والاقتصاد وكتاب المقالات وصناع البرامج والأحاديث المرئية أو المسموعة.

وتزداد الدقة المطلوبة درجة أخرى عندما يكون الكاتب متصلاً باللغة، يكتب عنها أو يناقش قضاياها، أو ينتقدها أو يمتدحها؛ لأنه يقترب من النبع الذى يفد إليه الآخرون للتزود والاستشارة، ولابد أن يكون بحكم الموقع الذى اختار أن يقف فيه قادرًا على التمييز بين الأطياف الدقيقة لما يفد إلى حواسه ومداركه، وما يصدر عن لسانه أو قلمه من معان وعبارات قد تتشابه على الآخرين، أو يقل اهتمامهم بتمحيص فروقها الدقيقة.

ومن هذا المنطلق فقد توقفت أمام بعض المحاولات التى تناقش قضايا اللغة العربية وموقعها على سلم التطور والجمود، ومقدرتها على الاستجابة لمطالب العصر الفكرية والعلمية، ومدى حاجتها للتطور والاستغناء عن بعض العناصر الثابتة فى قواعدها وتراكيبها، وكلها قضايا على درجة بالغة من الأهمية.

وليست العربية بدعًا فى هذا المجال، فهناك كثير من اللغات الحديثة الحية عرفت كيف تتطور لكى تعبر عن المطالب المختلفة لمتحدثيها وكيف تحافظ فى الوقت ذاته على هيكلها الأساسى

الذى عرفت به كلغات ثقافة عالمية، حتى وإن احتوى هذا الهيكل على بعض الصعوبات التى لا يرضى عنها عادة بعض متعلمى هذه اللغة سواء أكانوا من أبنائها، أم من غير أبنائها، ولكنهم لايملكون دائمًا القدرة على إزاحة ما لا يرضون عنه من هذه القواعد.

لكن قضايا التطور لا ينبغى أن تناقش من خلال الدعوات والهتافات غير المحددة الدلالة على النحو الذى أشرنا إليه فى بداية هذا الفصل، التى يحمل بعضها شعار الهتاف: «يحيا.. يسقط» دون إدراك دقيق لما ينطوى عليه الشعار من مخاطر، ولما ينطبق عليه من جزئيات قد يقع بعضها ـ بقصد أو دون قصد ـ تحت سنابك فورة التحمس الطارئة. إن محاولات تطوير العلوم والفنون وكل ألوان النشاط البشرى، تخضع جميعًا لمبدأ رئيسى هو المبدأ الذى يقضى بأن حامل لواء التطور لابد أن يكون مهيمنًا على أصول الفن الذى يريد أن يطوره، وله الحق بعد ذلك فى أن يكون غير راض عن بعض هذه الأصول أو حتى عن كلها، لكننا عادة لا نقبل أن يأتى مهندس فيدعو إلى تطوير أشكال البناء، ونسب المواد وفنون العمارة، وهو يجهل الأصول التى يرتكز عليها الوضع الذى يريد أن يطوره، وكذلك الشأن بالنسبة للأطباء والرسامين والموسيقيين وعلماء اللغات، فالإنسان عدو لما يجهله، كما يقول المثل السائر.

ولهذا فإننى عندما قرأت واحدًا من هذه الهتافات فى عنوان كتاب يدعو إلى حياة اللغة العربية وموت سيبويه، توقفت عند الشطر الأول من العنوان «لتحيا اللغة العربية» وتساءلت، طلبًا للفهم، عن معنى اللام هنا: هل هى هذه اللام التى تدعونا إلى فعل

شىء، وتجرى حتى فى لغة الحديث العادية، فنقول مثلا: «ليكن ما يكون»، ونقول فى لحظة الانفعال: «فليذهب هذا الشىء إلى الجحيم»، ونهتف: «لتعش مصر حرة عزيزة» أو: «لتسقط الدكتاتورية»؟! ومن المنطقى أن يتصور القارئ أن المؤلف يهتف أيضًا بحياة اللغة العربية، بخاصة أنه حرص على تأكيد هذا المعنى أكثر من مرة فى كتابه وقد قال فى المقدمة: وبعيد عن ذهنى تمامًا هجر اللغة العربية لحساب اللهجات العامية، أو استخدام الحروف اللاتينية وما شابه ذلك من اقتراحات طرحها بعض الذين أدركوا نكوص الفصحى عن التعبير عن واقعنا الحالى، فالذين يدعون إلى وأد اللغة العربية، لا يدركون تبعات مطلبهم، فاللغة العربية أنتجت بعضًا من أهم الإبداعات الإنسانية.

وترك اللغة العربية معناه ببساطة محو كل هذا التراث العظيم من الذاكرة الجماعية للشعب العربى، هذا عن التاريخ، أما عن الحاضر فإن معناه تفتيت الأمة العربية وشرذمتها إلى كيانات مستقلة وربما متنافرة.

وهذا كلام طيب دون شك، بصرف النظر عن تناقض كثير من صفحات الكتاب معه، ولكن الذى يعنينا هنا، أن مثل هذه الفقرات تساعد على الظن بأن المؤلف فى عنوانه كان يهدف إلى الدعوة إلى حياة اللغة العربية، وإلى سقوط سيبويه، وإذا صح ذلك فإنه قد يدفعنا إلى مشكلة أولى مع أعراف هذه اللغة التى يدعو إلى حياتها، ذلك أن هذه اللام تسمى فى قواعد اللغة «لام الأمر» وهى تجزم الفعل المضارع بعدها، وأى مثقف عادى ينطق جملة «ليكنْ ما

يكون» ساكنة النون، دون عناء في تعلم القاعدة أو تطبيقها، ومن هنا فإن صياغة الدعوة إلى حياة اللغة العربية، ينبغي أن تكون بعبارة «لتحى اللغة العربية» دون وجود ألف بعد الياء.

أما إذا كان المؤلف يريد من هذه اللام في العنوان مفهومًا آخر يتعلق بالربط بين أجزاء الجملة أى لكى تحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه ـ فإن صياغة الفعل قد تكون صحيحة وإن كانت ركيكة، لكن معنى العنوان كله سوف يكون فى حاجة إلى مزيد من التوضيح؛ إذ كيف يتطلب إحياء اللغة، والمحافظة على تراثها الجميل الذى يعجب به المؤلف، أن نسقط واحدًا من الرموز البارزة لهذا التراث؟

ولماذا وقع الاختيار على المسكين سيبويه؟ لقد كان سيبويه شابًّا شديد الحيوية والجمال، عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى، وتوفى حوالى ١٨٠هـ، وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره، ولم يكن اسمه الذى ولد به هو سيبويه فقد كان يسمى عمرو ابن عثمان الحارثى وكنيته أبو بشر، ولكن حيويته وجماله وعبقريته وخفة ظله هى التى جعلت الناس يطلقون عليه هذه الكلمة الفارسية «سيبويه» التى تعنى «رائحة التفاح»، وكانوا يتحدثون عن وجهه المتورد المبتسم دائمًا مما يذكرهم بجمال ثمرة التفاح فى تمام نضجها، ويتحدثون عن حضوره المتميز فى مجالس العلم وخفة ظله، حتى إن أستاذه الخليل بن أحمد كان يستقبله فى مجلسه دائمًا وهو يهتف به: «مرحبًا بزائر لا يُمَل».

وكيف يُمَل هذا الزائر الشيرازى الفارسى فى مجالس العلم فى

بغداد والبصرة، وقد قدَّم نموذجًا على مدى حب اللغة العربية والافتتان بها من شباب غير العرب، فقد كان سيبويه فارسيًا، لا ينحدر من آباء وأمهات من العرب الخُلَّص، وإنما تعلم العربية تعلمًا بالسماع والقراءة، ولم تكن قواعدها التى قننها النحاة فيما بعد قد استقرت، واختار مجلس عالم جليل هو الخليل بن أحمد فى مدينة البصرة العراقية، وكان الخليل بدوره منحدرًا من عمان فى جنوب الجزيرة العربية، وكان عبقريًا فى علوم عصره يسيطر على الرياضيات ويعرف الموسيقى، ويبتكر مناهج للسيطرة على مفردات اللغة التى لا حدود لها، فيكون أول من يضع خطة لمعجم عربى هو معجم العين، ويبتكر مناهج للسيطرة على تنوع الإيقاع فى شعر اللغة، فيضع أوزان علم العروض التى ظلت صامدة نحو خمسة عشر قرنًا، ويلقى دروسًا على تلاميذه فى تصوره للوصول إلى آجرومية للكلام العربى، ولكنه لا يدون دروسه فى كتاب يتركه للناس من بعده، ولكن تلميذه الفارسى الوفى سيبويه، هو الذى يلتقط ملاحظات شيخه الخليل، ويدونها منسوبة إليه فى عمل صغير الحجم، لكنه بالغ الأهمية يسميه الناس «الكتاب» هكذا! دون أى إضافة أخرى، ويكون هذا الكتاب منطلقًا لكثير من الكتب المفيدة فى المحافظة على اللغة.

هل يستحق مثل هذا النموذج فى ذاته أن ندعو إلى إسقاطه؟ وهل دعا تراث اللغة الإنجليزية إلى إسقاط شاعر مثل «طاغور» الهندى؛ لأنه شديد الحب للإنجليزية والحرص عليها؟ وهل دعا حماة اللغة الفرنسية إلى إسقاط مفكر مثل ليوبولد سنجور السنغالى عقابا له على حبه للغتهم؟!

وألا يكفى سيبويه المسكين ما صنعه به علماء عصره العرب من الذين حسدوه على نبوغه وتفوقه، فدبروا له مؤامرة «نحوية» فى مجلس أحد الخلفاء، عندما اختلف هو و«الكسائى» أحد كبار نحاة عصره حول عبارة بسيطة تتحدث عن لسع «الدبور» و«النحلة» وتقول: «كنت أظن أن النحلة أشد لسعًا من «الدبور» فإذا هو هى» فيقول الكسائى: صحة العبارة: «فإذا هو إياها» ويختار سيبويه الصيغة الأولى، ويتم الاحتكام فى مجلس الخليفة إلى أعرابى صافى اللغة، فيختار صيغة سيبويه، لكن المتآمرين يغرون الرجل بوسائل شتى، فيعود لكى يختار صيغة الكسائى، ويخرج سيبويه من المجلس حزينًا منكسرًا، ويعود إلى شيراز، ويموت كمدًا كما يقولون، وهذه الميتة وحدها تكفيه، وينبغى أن ندعو لآرائه بأن تحيا لكى تناقش وتتطور وتتغير وفقًا لكثير من معطيات التطور التى تعرفها كل حضارات العالم المتقدمة.

وأن نحترس من الوقوع فى فخ القطيعة مع التراث من خلال الانفعال والدعوة إلى إسقاط أعلام ذلك التراث، وبدلاً من ذلك علينا أن نتبين فى هدوء أبعاد المشكلة التى نواجهها، ونعمل على مناقشة جوانبها عنصرًا عنصرًا؛ نشدانًا للحق والصواب، الذى ينبغى أن يكون ضالة المؤمن والباحث الجاد.

تحديد أبعاد
المشكلة اللغوية

يواجه الباحث فى أى قضية، مهما كان حجمها ودرجة خطورتها، مطلبًا منهجيًّا أساسيًّا يتمثل فى ضرورة تحديد أبعاد المشكلة التى يواجهها، ودراسة التصورات وألوان الفهم الخاطئ أو اللبس التى أدت إلى بروزها، والخطوات التى ينبغى اتخاذها لتجسيد التصور الذى يطرحه الباحث لمناقشته، واقتراح حلول جديدة على أساسه، وهى الحلول التى تكون بدورها قابلة للمناقشة على يد من يتلقون نتائج عمل الباحث، وفى هذا الإطار تدور عجلة التطور والمعرفة إلى الأمام.

وهذا الإطار المنهجى العام، لا يطالب به أستاذ الجامعة الأكاديمى ويعفى منه كاتب المقال الصحفى، أو مؤلف الحديث الإذاعى، ولكنه إطار مطلوب من كل من أراد أن يخرج بالكلام من دائرة «الاستهلاك اليومى»، وهى واحدة من وظائفه الحيوية يستخدمها الإنسان فى البيت وفى المقهى وفى مسامرة الأصدقاء وشغل الوقت دون أن يكون مطلوبًا منه فى هذه الحالة تحديد أبعاد المشكلة والخروج من مقدمات تمهيدية إلى فروض مبنية على

أساس هذه المقدمات، تؤدى إلى حلول مقترحة، تساندها براهين موضحة، لكن الذى يخرج عن هذه الدائرة الاستهلاكية، ويدخل دائرة تدوين الفكرة المتماسكة، يجد نفسه مشدودًا إلى هذا المناخ الذى أشرنا إليه، والذى وضع له علماء الأسلوب ومناهج البحث أسسه الواضحة منذ عقود طويلة.

ومن اللافت للنظر أن يكون من بين أبرز من اقترحوا هيكلاً أسلوبيًّا متماسكًا لبناء الأفكار عالم نبات فرنسى فى القرن الثامن عشر، هو جورج بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨م) ولاهتمامه بمنهج الأسلوب، وإحكامه قصة طريفة فقد كان هذا العالم مولعًا بتنسيق الحدائق والتأمل فى عالم الأشجار ولكنه فى الوقت ذاته كان عاشقًا للغة الفرنسية والأدب الفرنسى، وله كتابات أدبية متميزة (وذلك شأن شائع عند كثير من علمائنا أيضًا) وقد تم اختيار جورج بوفون عضوًا بالأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٥٣م، ووفقًا لأعراف دخول الأكاديمية، فقد كان مطلوبًا منه أن يعد كلمة يلقيها فى حفل استقباله، واختار أن تكون كلمته حول العلاقة بين «تنسيق الأشجار وتنسيق الأفكار»، وكانت فكرته الرئيسية أن الإنسان محتاج لأن يتأمل فى إبداع الخالق ليعرف جزءًا من أسرار الكمال، وأنه لاحظ من تأمله فى عالم الأشجار أن الشجرة مهما كانت عظمتها وكبر حجمها وتفرعها تعود فى النهاية إلى بذرة واحدة، ينبت منها الجذع، وتتفرع عنه الأغصان، وتنمو فيها الثمار فى تماسك محكم، وكذلك ينبغى أن تكون فكرة الكتاب أو المقال ذات بذرة واحدة، ينبت فيها جذعها، وتتفرع عنه أغصانها وثمارها بنفس الدرجة من

التماسك، فإذا ما كانت الأفكار الفرعية غير متماسكة، أو غير شديدة الالتزام بالجذع أو البذرة، بدت هذه الأفكار ضعيفة معرضة للسقوط مع أول هبة قوية للريح.

ومن خلال هذا التصور وضع جورج بوفون مقاله الموجز المحكم Discours sur le syle «مقال فى الأسلوب» الذى أصبح من أساسيات علوم المنهج والأسلوب فى العصر الحديث، والذى وردت فيه العبارة الشائعة التى نستعملها جميعًا: «الأسلوب هو الرجل».

وفى هذا المقال فرق بوفون بين درجة تماسك لغة الكلام ودرجة تماسك لغة الكتابة، وبين ما يسميه البلاغة الحقيقية والبلاغة الزائفة، وكان يقول: «ما الذى يحتاجه المرء لكى يثير الجمهور ويربطهم إليه؟».

ما الذى يحتاجه حتى يهز معظم الآخرين ويقنعهم؟ صوت جهورى، وإشارات لبقة ومعبرة ومتتالية، وكلمات سريعة ذات رنين؟ لكن بالنسبة للقلة التى لا تنفذ الكلمات إلى رأسها بسهولة والتى تتمتع بذوق راق، وحواس مرهفة، والتى لا تعول على النغم إلا قليلاً، ولا على الإشارات والصدى الأجوف للكلمات، بالنسبة لهذه القلة، ينبغى أن يكون هناك شىء آخر، أفكار وأسباب، وأن يعرف المتكلم كيف يقدمها، وأن يقف على درجات الفروق الطفيفة بين بعضها والبعض الآخر، وأن ينسقها، وعلى الجملة لايكفى أن يملأ المتكلم الأذن ويشغل العين، بل لابد أن يصل إلى النفس، ويلمس القلب، حتى يوجه كلماته إلى الإنسان، ومن أجل

ذلك، فإن من يكتبون بالطريقة نفسها التى يتكلمون بها، تجىء كتاباتهم رديئة مهما كان كلامهم جيدًا، وأولئك الذين يستسلمون للبارقة الأولى فى خيالهم يمسكون بطرف خيط من النغم لا يستطيعون هم أنفسهم مساندته أو مواصلة السير عليه، وأولئك الذين يخافون من أن تضيع أفكارهم المتفرقة الشاردة، فيكتبون فى أوقات متباعدة قطعًا غير مترابطة، لا يستطيعون على الإطلاق أن يخرجوها إلى النور، دون تمهيد متكلف.

ولقد نقلنا هذا النص من ترجمتنا لمقال بوفون؛ لأنه يجسد مبادئ هامة فى مناقشة الكتابات التى يختلط فيها حسن النوايا بالتحمس بجمع الأفكار المتناثرة التى قد يكون بعضها لصيقا بالفكرة الأساسية، وبعضها الآخر بعيدا بدرجة أو بأخرى عنها، وكذلك فى مناقشة الفروض التى يطرحها كاتب ما للرد عليها، وقد نتبين فى نهاية المطاف أنها لم تكن مطروحة أصلا، أو أنها مطروحة بدرجة أقل كثيرا مما صورها المؤلف، وتكون المشكلة من ثم أقرب إلى المشكلات الزائفة منها إلى المشكلات الحقيقية، إذا فهمنا كلمة «الزائف» بمعناها المنهجى المحايد الذى لا يحكم على الأفكار فى ذاتها، ولكن على درجة اتصالها بالحقيقة والواقع.

وكتاب «لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه» لشريف الشوباشى والذى نحن بصدد الحوار ـ فى هذا الفصل ـ حول بعض أفكاره الرئيسية فى إطار ما يكتب عن اللغة العربية من محاولات التطوير أو التغيير، كتاب يخضع فى مجمله للخطوط العامة لمناهج البحث ويطرح خطة قابلة للمناقشة، وهو يوزع صفحات الكتاب بين

القضية الرئيسية التى يمكن أن تسمى «نواة الكتاب» وهى مقترحات الإصلاح اللغوى والنحوى، وبين القضايا التمهيدية التى تهيئ المناخ - فيما يرى المؤلف - لتقبل هذه المقترحات وهذه القضايا التمهيدية، تمتد امتدادا طويلاً مخلاً حتى تضطرب النسبة بينها وبين صفحات «نواة الكتاب» بطريقة لافتة.

ويكفى للتدليل على هذا الاضطراب أن نرصد أن القضية الرئيسية أو نواة الكتاب، تم التركيز عليها فى ثلاث عشرة صفحة فقط (من صفحة ١٦٧ - إلى ١٨١) قدمت خلالها المقترحات الرئيسية للكتاب وقدمت القضايا التمهيدية والتكميلية فى نحو ١٨٠ صفحة بنسبة تعطى للنواة أقل من ٧٪ من صفحات الكتاب، وللقضايا الأخرى أكثر من ٩٢٪.

وقد ألمح المؤلف نفسه إلى بعض أسباب هذا الخلل، وهى تكمن فى أنه كان ينوى أن يقدم فكرة الكتاب فى «فصل» من كتاب سابق له حيث يقول: «وفى كتاب «الداء العربى» حاولت أن أضع أصابعى على بعض أسباب تخلف العالم العربى عن ركب الحضارة العالمى، وكنت أنوى أن أخصص فصلا عن اللغة، بعنوان «رسالة إلى حراس الضاد» أشدد فيها على ضرورة الثورة على قواعد اللغة التى لم تعد تواكب زماننا، فأنا أعتبر أن اللغة هى إحدى «يريد أن يقول أحد» عناصر تخلف العالم العربى، لكننى وجدت أن قضية اللغة أكبر من أن تعرض فى فصل داخل كتاب، فهى فى حاجة إلى مؤلف مستقل يحلل الظاهرة، ويحيط بها من جوانبها المختلفة.

فكرة الفصل إذن امتدت إلى كتاب، واضطر المؤلف إلى أن «يمط وينفخ» فى أصول الفكرة النواة، ويمهد لها بقضايا كبيرة مثل عالمية اللغة، وقداسة العربية، وموقف العربية من المسيحيين والشيزوفرنيا اللغوية والتحنيط اللغوى، وكلها قضايا هامة وعميقة، وإذا لم يكن الحديث فيها مقصورا على المتخصصين بالضرورة، فمن المؤكد أن النقاش حولها محتاج إلى التزود بقدر ضرورى من المعارف والخبرات، يبدو الأمر فى غيابه وكأن أحد القوارب المؤهلة للتحرك فى الأنهار الهادئة وجد نفسه فجأة يصارع أمواج المحيط، ويضرب بمجاديفه فى كل اتجاه، ويأمل ونأمل معه، أن تكتب له أسباب النجاة.

وإذا كانت قضايا التمهيد قد اتسعت على المؤلف من ناحية، فإن خطة بنائها المنهجى من ناحية أخرى تحمل خاصية لافتة للنظر خلال محاولاتها الرد على المشاكل التى يثيرها المؤلف ودرجة صلة هذه المشاكل بالواقع الحقيقى، والذى يحدث أن القارئ سرعان ما يكتشف أن المشكلة التى جسدها المؤلف وحبَّر صفحات كثيرة فى الرد عليها، ليست موجودة بنفس الدرجة التى صورها بها، أو ليست موجودة أصلاً، وكثيرًا ما ترد صفحات الكتاب على نفسها فى هذا الصدد فتنفى الصفحات الأخيرة ما حاولت إثباته الصفحات الأولى وسنرى شواهد على ذلك خلال الحوار التفصيلى.

ولكى أجسد ما أعنيه بالضبط عن مدى دقة درجة المشاكل المثارة بالواقع الحقيقى، سأضرب مثالاً من خارج دائرة الكتاب

بما يمكن أن يقع فيه كاتب فى عالم السياسة يهتم بسباق التسلح فى الدول النامية وقد قرأ خبرًا عن سعى دولة صغيرة مثل موريتانيا للحصول على نظام حديث للدفاع الجوى، فافترض أن هذا السعى هو فى ذاته سعى للدخول إلى مجال الصواريخ والأسلحة النووية، وبنى تساؤلاته فى مقال نقدى حول جدوى دخول موريتانيا إلى النادى الذرى الدولى والمخاطر المتوقعة على اقتصادياتها الضعيفة والاضطرابات الواردة فى مجال الاستقرار على شاطئ المحيط الأطلنطى وغرب إفريقيا، إلى آخر التداعيات التى يمكن أن تثار فى خيال كاتب سياسى.

فإذا ما توقف قارئ أمام مثل هذه التداعيات وتساءل: ومن الذى قال: إن موريتانيا تسعى أساسا للحصول على السلاح النووى؟ فإنه يكون قد عاد بالتساؤلات المثارة إلى نقطة البدء، وهذا هو ما يحدث إلى حد بعيد فى المنهجية التى يتبعها الأستاذ الشوباشى، والقضايا التى يثيرها دون التوقف بالقدر الكافى عند نقطة الانطلاق لمعرفة ما إذا كنا أمام مشكلة حقيقية أو زائفة.

اللغة والدين

العلاقة بين اللغة العربية والدين الإسلامى علاقة قوية دون شك، فالقرآن وهو معجزة نبى الإسلام وكتاب المسلمين الخالد، نزل بالعربية، ومن خلالها انطلق إلى بقية اللغات.

لكن هذه العلاقة القوية، ليست علاقة مطابقة، بمعنى أن العربية ليست هى الإسلام، وأن الإسلام ليس هو العربية وإنما تجمعهما نقطة التقاء قوية، ويظل كل طرف منهما يحتفظ بخصائصه الأخرى، وتلك قضية تبلغ من الوضوح حدًّا لا تحتاج معه إلى كبير عناء لإثباتها، فكما كانت العربية لغة محمد عليه الصلاة والسلام فى إثبات دعوته، كانت هى لغة مسيلمة وسجاح فى نفى هذه الدعوة وادعاء نقيضها، وكما كانت أذكار أبى بكر الصديق وعبدالله بن مسعود تصاغ بعربية جميلة كانت معارضات أبى جهل وأبى لهب، ولعناتهما تصب على من اتبع الدين الجديد بعربية جميلة أيضا «من حيث مقاييس الصحة والبلاغة».

وكانت العربية من قبل هذا هى لغة الجاهليين من عبدة الأصنام التى جاء الإسلام لكى يهدمها لا ليقطع ألسنة أصحابها، بل إن علماء المسلمين احتفوا بكلامهم وحفظوا أشعارهم، واستعانوا بها فى تفسير القرآن.

وكانت العربية من بعد هذا لغة تُستغل فى كثير من مظاهر الحياة، فتكتب بها العهود والمواثيق والمعاهدات والرسائل وبعضها صادق وبعضها كاذب، وبعضها وفيٌّ وبعضها غادر، دون أن يدعى أحد بالضرورة أن كل ما يكتب بالعربية لابد أن يكون جميلا، وأن يكون مقدّسًا؛ لأنها اللغة التى نزل بها القرآن الكريم.

ومن أجل هذا فقد كان لافتًا للنظر فى منهجية الأستاذ الشوباشى أن يخصص فى كتابه فصلين متتاليين يمثلان نحو ربع الكتاب، يحمل أحدهما عنوان: «هل العربية لغة مقدسة؟» ويحمل الثانى عنوان «المسيحيون والعربية» ويقوم الفصلان معًا على بذل جهد كبير لإثبات أن العربية ليست لغة مقدسة (ولم يقل أحد أبدًا من العقلاء قديمًا أو حديثًا: إنها لغة مقدسة) وعلى أن المسيحيين لهم الحق فى امتلاك أسرار العربية والتحدث بها وتطويرها؛ لأنها لغة ليست للمسلمين وحدهم (ولم يقل أحد أبدًا من العقلاء فيما نعلم، بغير هذا) ويضيف إلى هذين الفرضين العجيبين فرضًا ثالثًا أكثر غرابة لكى يهدمه كذلك حين يقول: «والقول بأن كل المسلمين يجيدون العربية هو قول زائف يروج له بعض الذين يدافعون عن نظرية قدسية اللغة العربية».

ولا أدرى من هم هؤلاء الذين يروجون لمثل هذا القول الزائف فى عصر المعلومات والاتصالات التى تقول ببساطة لكل من يفتح المذياع أو يقرأ الجريدة أو يجلس على المقهى: إن ٨٠٪ من أبناء الشعوب الإسلامية لا يتكلمون بالعربية، ولو حدث فرضًا أن واحدًا دفعته البساطة أو السذاجة أو الجهل إلى القول بغير هذا، فلا ينبغى

لكاتب يواجه قطاعًا عريضًا من مثقفى لغته، أن يصعد بهذه الأقوال الساذجة إلى مرحلة «المشكلات» العلمية والمنهجية التى تفرد الصفحات للرد عليها، إلا إذا كنا مولعين بطريقة الكاتب السياسى، الذى صدق أن موريتانيا تسعى إلى سباق التسلح النووى، فأخذ يحلل مخاطر هذا الاتجاه عليها، أو كنا معجبين بطريقة الكاتب الإسبانى سرفانتس فى مسرحيته دون كيشوت، حين دعا كل أعدائه إلى الهواء الطلق وشهر فى وجوههم سيفه الخشبى البتار.

ومن أجل هذا كله، فإن قضية «علاقة الدين باللغة وفنونها» فى حاجة إلى إضاءة موجزة، تلقى الضوء على بعض الصفحات المشرقة فى تاريخ التسامح والتفتح عند النقاد والعلماء فى هذا المجال، وتبعد عن الأذهان فكرة احتكار علماء الدين لمسار تطور اللغة أو حتى محاولتهم إخضاع تطور فنونها وآدابها للمفاهيم الحرفية المباشرة، التى ينادى بها الوعاظ فى خطبهم، وها هو قاضى قضاة المسلمين فى نهاية القرن الرابع الهجرى وهو العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، على بن عبدالعزيز الجرجانى (ت٣٩٢هـ) مؤلف «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» وهو فى الوقت ذاته يؤلف كتابًا يعد من أهم كتب النقد الأدبى عند العرب وهو كتاب «الوساطة بين المتنبى وخصومه»، عندما يتعرض ذلك القاضى، وهو فى صدر رجال الخلافة الإسلامية العظمى لذلك العصر للمطاعن التى وجهت ضد المتنبى من أعدائه بأن فيه لونًا من الضعف فى العقيدة، يقول: «والعجب ممن ينتقص أبا الطيب ويغض من شعره، لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة، وفساد

المذهب فى الديانة، فلو كانت الديانة عارًا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليهم بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير أو ابن الزبعرى وأضرابهما، ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب أصحابه بكمًا خرسًا، ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر». وعبارة القاضى الجرجانى شديدة الوضوح فى عدم الربط أساسًا بين الدين والشعر، وهو قمة الإبداع اللغوى «والدين بمعزل عن الشعر» وكذلك فى عدم اكتساب العمل الأدبى قيمة سلبية أو إيجابية من خارج أدواته اللغوية وقيمه الجمالية الخالصة.

ولم يكن موقف القاضى الجرجانى موقفًا مفردًا، وإنما هو امتداد لمواقف واعية متسامحة فى قصة علاقة الدين باللغة، تمتد حتى رجال الصدر الأول للإسلام من أمثال عبدالله بن عباس ابن عم الرسول ﷺ والذى كان يطلق عليه عالم الأمة وحبرها، وهو أول مفسرى القرآن الكريم، وكان ابن عباس مع ذلك شديد الحب للشعر، ولشعر الغزل خاصة يرويه فى مسجد الرسول ردًّا على المتعنتين، وكان صديقًا لشاعر الغزل الكبير عمر بن أبى ربيعة، وتروى كتب الأدب مواجهة طريفة حدثت فى الكعبة كان من شهودها ابن عباس، وعمر بن أبى ربيعة وبعض الفقهاء المتشددين: «فقد كان ابن عباس رضى الله عنه فى المسجد الحرام وعنده جماعة من علماء الخوارج، يسألونه ويستفتونه، وعلى رأسهم نافع

ابن الأزرق، إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردين، حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس، يستنشده من شعره، فأنشد الرائية التى يقول فى مطلعها:

أمن آل نُعْم أنت غادٍ فمبكر غداة غد أم رائح فمهجـــرُ

إلى أن أتمها (وهى قصيدة تحكى مغامرة غزلية فى خيام الفتيات ليلاً) فالتفت إليه الفقيه نافع بن الأزرق قائلاً: الله يابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام، فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف فينشدك:

رأت رجلا أما إذ الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فتنصرف إليه؟ فبادره ابن عباس قائلاً: ليس هكذا قال:

إنما قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

وعجب نافع من حفظ ابن عباس للبيت، فأعاد عليه القصيدة من مطلعها إلى ختامها، وقال لمن حوله «إنا نستجيدها».

وليست هذه نظرة أبناء لغة يرونها ملكًا لعلماء الدين قبل الشعراء، ولا ألصق بلغة المواعظ والفتاوى منها بلغة المداعبات والغزل، إنهم يرونها لغة تصلح للفنون والآداب، كما تصلح لمدونات الفقه وقواعد التفسير ومن هنا، فإنهم لا يخلعون عليها إعجازًا فى حروفها ومعانيها بل ولا يعطون لعلماء الدين حق التحكم فى فنون اللغة والحكم على آدابها إلا إذا كانوا متخصصين فى فروع الأدب واللغة، وهناك موقف واضح وصارم، وقفه مؤرخ الأدب

محمد بن سلام الجمحى (ت ٢٣١) صاحب كتاب «طبقات فحول الشعراء»، من مؤرخ السيرة النبوية الشهير محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) حين وجده قد اختار فى كتابه بعض نصوص من الشعر العربى القديم، وهى نصوص لا يقرها علماء الأدب المتخصصون، فلم يتردد فى أن ينقد مسلكه بعنف، وأن يقول عنه: «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق، وكان من علماء الناس بالسير، فقبل الناس عنه الأشعار، وكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ».

ولو كان أحد يرى أن اللغة فيها شبهة القداسة لكان أولى الناس بألا تتعرض لغته للنقد هو مؤرخ السيرة النبوية فى القرن الثانى للهجرة، ولكن هذه اللغة فى نظر علمائها قديمًا وحديثًا، هى لغة قابلة للصواب والخطأ والكمال والنقص، والتحديث والتطوير وأن يكتب بها ويبدع كل من تعلمها، سواء أكان من أبنائها أم من غيرهم من المسلمين أو من غير المسلمين، وهناك حديث نبوى بالغ الدلالة فى هذا الصدد يقول: «ليست العربية من أحدكم بأبيه ولا بأمه وإنما العربية لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى».

وامتدادًا لهذا المفهوم، لم يقل أحد من القدماء ولا من المحدثين بإعجاز اللغة العربية، كما يقول الأستاذ الشوباشى، وإنما تحدثوا عن إعجاز القرآن الكريم، بل إن الكتب التى فصلت القول فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم مثل كتاب «دلائل الإعجاز»

لعبدالقاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) وقفت بالتفصيل أمام عناصر البناء اللغوى المألوفة، عنصرًا عنصرًا لتنفى عنها جميعًا صفة الإعجاز، الواحدة بعد الأخرى، فأشار عبدالقاهر، إلى أنه لا يمكن أن يكون الإعجاز موجودًا فى الحروف التى تتكون منها كلمات اللغة كالألف والباء والتاء، ولا فى المفردات من حيث هى مفردات؛ لأن دلالة كل مفردة على معناها، هو اتفاق بين مستعملى اللغة، ولا فى المعانى المتصلة بكل لفظة على حدة؛ لأن كل معنى قابل لأن يعبر عنه بلغات متعددة؛ وبعد أن استعرض كل عناصر التركيب، ونفى عنها الإعجاز واحدة بعد الأخرى، عاد إلى النص القرآنى، لكى يقول: إن الإعجاز يتحقق فيه من خلال ما أسماه «النظم» وهو أعلى درجات الإحكام فى تناسق العناصر اللغوية التى يتكون منها النص، وخاصية «النظم» التى يترتب عليها تحقق الإعجاز عند عبدالقاهر وعند غيره من البلاغيين لا تتحقق إلا فى النص القرآنى، ولا توجد فى أى نص عربى آخر مهما كانت بلاغته، حتى يقال: إن اللغة فى ذاتها معجزة، وغاية ما انتهوا إليه أن النص الأدبى الراقى يحاول الاستفادة من روعة البناء المحكم المعجز للنص القرآنى، فيرتقى فى درجات الجمال، دون أن يبلغ أبدًا درجة الإعجاز.

علاقة اللغة إذن بالدين الإسلامى تسير فى هذا الإطار فهى تكتسب شرف أنها الوعاء الذى صُبت فيه كلمات الذكر الحكيم، وأن هذا الذكر قد وعد الله بحفظه فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ وذلك الوعد يهب الناس دائمًا خيطًا من الأمل فى وجه العواصف التى تجتاح اللغة، دون أن يعطى اللغة فى

ذاتها قداسة، ودون أن يعطى علماء الدين - باعتبارهم علماء دين فقط - سلطة خاصة فى التحكم فى اللغة، ولكن لهم الحق بالطبع، شأنهم فى ذلك، شأن كل المتحدثين باللغة والمتبحرين فيها على نحو خاص، أن يطرحوا اجتهاداتهم حولها.

وكذلك بالنسبة لمتحدثى العربية من المسيحيين أو اليهود أو الديانات الأخرى، فلم يقل أحد لا من حيث الادعاء ولا من حيث الواقع: إنهم على درجة مختلفة فى حقوقهم وواجباتهم تجاه اللغة عن الدرجة التى يقف عليها المسلمون.

ولا نريد أن نذكّر بأسماء كبار شعراء النصارى واليهود وكُتّابهم منذ عصر السموأل بن عادياء والأخطل التغلبى حتى خليل مطران والأخطل الصغير وميخائيل نعيمة وحنا مينا ويوسف الشارونى وغيرهم، بل إن واحدًا مثل عبدالله بن المقفع ينسب إليه أنه رائد فن الكتابة العربية، كان حتى قبل وفاته بأعوام قليلة يدين بالمجوسية ويسمى «روزبة بن دازويه»، ولم يمنعه ذلك من أن يكون الكاتب الأول فى بلاط الخليفة، وهو منصب أشبه ما يكون بمنصب وزير الثقافة والإعلام فى عصرنا.

فالعلاقة إذن بين اللغة والدين لا تضع أى قيد على حركة اللغة وتطورها ونموها، ولا تقصر الهيمنة عليها على علماء الدين ولا تمنع غيرهم مسلمين كانوا أو غير مسلمين من الحوار والنقاش وطرح الآراء، ولكن المهم أن يكون المناقش يمتلك القدر الضرورى من المعرفة بموضوع اللغة، شأنه فى ذلك شأن المناقش فى أى موضوع من موضوعات المعرفة الإنسانية.

العربية لغة متطورة

يمتد تراث العربية الذى نعرفه إلى أكثر من ألف وخمسمائة عام، وهى بهذا تُعد من أطول اللغات الحية عمرًا، ورغم هذا الطول الزمنى، فإن المثقف العادى إذا قرأ بيت امرئ القيس الذى كتبه قبل خمسة عشر قرنًا:

أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

لم يجد صعوبة فى فهمه ولا حاجة ماسة إلى استشارة القواميس، ومتذوق الأغنية العاطفية المعاصر يترنم مع أم كلثوم بقول أبى فراس الحمدانى منذ أكثر من ألف عام:

نعم، أنا مشتاقٌ وعندى لوعة ... ولكن مثلى لا يُذاع له سرُّ

فتسرى النشوة فى روحه، إذا كان يميل إلى هذا اللون من الإيقاع، ومعنى ذلك أننا أمام لغة حية، وشجرة عميقة الجذور، لكننا فى الوقت ذاته، لسنا أمام لغة محنطة؛ لأن التحنيط يصلح لجثث الموتى، لا لأجساد الأحياء.

ومن هنا فإنه ليس صحيحًا ما يقوله الأستاذ الشوباشى من: «أن العربية هى اللغة الوحيدة على وجه الأرض التى لم تتطور قواعدها،

ونحوها وصرفها منذ ألف وخمسمائة عام، وهى اللغة الوحيدة فى العالم التى أصر الناطقون بها على تحنيطها وبذلوا كل الجهود للحفاظ على نقائها».

فكون الفاعل مرفوعًا والمفعول منصوبًا على امتداد تاريخ العربية لا يعنى أننا أمام «مستوى» لغوى واحد محنط على امتداد العصور المتتالية، فلقد أثبت نسيج العربية عبر امتداد تاريخها الطويل أنه يقبل الكثير من ألوان المرونة والامتداد والاستيعاب وتمثل كثير من ألوان التفكير المستحدثة، وأطياف الحضارات الوافدة، وأن هذا النسيج قادر على احتواء المستجدات، وإفساح مجال لها بين خيوطه، حتى لتبدو وكأنها جزء منه، ولا أريد هنا أن أتحدث بالتفصيل عن الوسائل التى تعرفها اللغة لإحداث هذا الاستيعاب والتمثل، مثل الاشتقاق والنحت والتعريب والقياس اللغوى، فقد توسع علماء اللغة فى كتبهم المتخصصة فى هذه الوسائل بما يفسر سر قدرة اللغة على الصمود والتجدد طوال هذه الفترات.

ولكننى أريد أن أعود إلى واقع اللغة الحى طوال هذه الفترات، وأطرح نماذج منها لأعرف ما إذا كانت لغتنا العربية التى نستعملها اليوم على أقلام الصحفيين والكتاب، ونخاطب بها عامة المثقفين، تُعد نموذجًا محنطًا لمستوى العربية التى كان يستعملها أبو حيان التوحيدى مثلاً، فى القرن الرابع الهجرى ومن قبله الجاحظ وابن المقفع وعبدالحميد الكاتب فى القرون السابقة؟ أو حتى لمستوى العربية فى القرون القريبة الماضية على لسان عبدالرحمن الجبرتى،

ورفاعة الطهطاوى وعبدالله النديم ومحمد المويلحى والمنفلوطى والرافعى؟

ألم تتطور العربية تطوّرًا واسع المدى، يجعلنا نظن أن الجاحظ، لو بُعث من مرقده، وقرأ عناوين الصحف المعاصرة، لوجد نفسه فى حيرة شديدة من هذه اللغة التى تشبه حروفها وبعض كلماتها لغته التى يعرفها، ولكنها تتوسع كثيرًا فى دلالة المفردات، وتحور كثيرًا فى بناء التركيبات، وتتجاور الكلمات فيها بطريقة لم تكن معهودة لديه، وتقبل من عصارات اللغات الأخرى وألوان التفكير المستحدثة ما لم يكن معروفًا عنده، وتتبدّى فيها كل ألوان الخلايا المتجددة، برغم ما يصيبها من أمراض وأعراض، ينبغى التنبه لخطورتها المستفحلة قبل فوات الأوان.

وسأكتفى هنا بإيراد بعض النماذج للتطور العام للغة خلال تاريخها الطويل.

نماذج من عصور
العربية المختلفة

النموذج الأول:

من كتاب: الصداقة والصديق

لأبى حيان التوحيدى

(٣١٢-٤٠٠هـ)

كتب أبو حيان حكاية اثنين من أعلام عصره، كانت بينهما معرفة قديمة انقلبت إلى جفوة وعداوة، ولكن هذه العداوة لم تجعل أحدهما يغدر بالآخر أو يكيد له، لمزاياهما العقلية والنفسية فكتب فى وصف حالهما يقول:

«كان بين القاضى أبى حامد المروزى وبين ابن حروبة، العداوة الفاشية والشحناء الظاهرة، وكان يقول: والله إنى بباطنه فى عداوته أوثق منى بظاهر صداقة غيره، وذلك لعقله الذى هو أقوى زاجر له عن مساءتى إلا فيما يدخل فى باب المنافسة، ولهذا استمر أمرنا أربعين سنة من غير فحاشة ولا شفاعة، ولقد دعيت إلى الصلح فأبيتُ، وقلت: لا تحرك الساكن منا، فلقديم العداوة بالعقل والحفاظ من الذمام والحرمة، ما ليس لحديث الصداقة بالتكلف والملق.

ولقد وقفنى مرة على ضَرْبة تأتت له علىّ، كان فيها البوار، فكفَّ عنها واتقى، وأخذ بالحسنى، فأريته أختها ـ وكانت خافية

عنده ـ فقال، لولا علمى بأنك تسبق إلى مثل هذه، ما قابلتك بتلك، فقلت: هو والله ذاك، ووالله لقد ضرَّنى ناس كانوا ينتحلون مودتى، ويتبارون فى صداقتى، لضعف نحايزهم، ولؤم غرائزهم، ولقد ثبت لى هو فى عداوته على عقل وتذمم أفضيا بهما إلى سلامة الدين والنفس والحال».

وهذا النص كان يوجهه أبو حيان لقرائه فى القرن الرابع، كما يوجه الدكتور زكى نجيب محمود مثلاً، فى عصرنا، تأملاته إلى قراء صحيفة «الأهرام»، دون أن يكون فى حاجة إلى كتابة هوامش وشرح مفردات وتبسيط تراكيب متداخلة. لكن هذا النص لا يبدو على الإطلاق كذلك بالنسبة لقارئ العربية المعاصرة، فلقد أصبحت كثير من المفردات بالنسبة له مهجورة إلا على ألسنة الصفوة، ولكن كل كلمة مهجورة حلت محلها كلمة أخرى متداولة الاستعمال لدى المثقف المعاصر، وتم فى الوقت ذاته الاحتفاظ بالكلمة الأولى لطبقة معينة من طبقات نصوص التراث، دون أن يكون فى ذلك عيب فى اللغة ولا اتهام لها بكثرة المفردات، فلا أحد يُجْبَرُ على استخدام كلمات تراثية فى موقف لغوى معاصر، والذى يصنع هذا يقع فى خطأ تسميه اللغة «التكلف والتفيهق». وقد كان ذلك أحد العيوب الرئيسية التى تعاب على المتشددين فى التكلف اللغوى، حتى منذ عصر النبوة.

وإذا كانت توجد خيوط متصلة بين النص القديم والنصوص المعاصرة، فى علامات الإعراب، فيظل الفاعل مرفوعًا والمفعول منصوبًا، والمضاف إليه مجرورًا، فهناك تطور كبير فى قواعد

التراكيب، حيث أصبحت كثير من طرق التراكيب التراثية، لا يحتاج إليها قانون التركيب المعاصر، أو يستبدل بها تراكيب أخرى وإذا أخذنا عبارة، مثل: «والله إنى بباطنه فى عداوته أوثق منى بظاهر صداقة غيره»، وجدنا قوانين التركيب والتداخل التى تحكمها لم تعد تستعمل فى العربية المعاصرة، ولهذا، فإنه رغم أن كل مفرداتها مألوفة «باطن، عداوة، أوثق، ظاهر، صداقة» فإن مجمل تركيبها يبدو للقارئ المعاصر غريبًا وقد لا يستوعب معناه إلا إذا قيل له إنه يريد أن يقول: «إن ثقتى وعدم خوفى من موقفه منى مع أنه يظهر لى العداوة أكثر من ثقتى وعدم خوفى من غيره من الناس الذين يظهرون لى الصداقة»، وهذا التطور فى الاستعمال هو الذى ينبغى أن يركز عليه علماء العربية المعاصرة، وهم يختارون قواعد اللغة التى يقدمونها للمتعلمين غير المتخصصين فى اللغة وخفاياها، وإذا تم هذا فقد نجد أنفسنا فى غنى عن تقديم ثلاثة أرباع قواعد النحو للمتعلمين فى مراحلهم الأولى، وهذا هو نوع التطور الذى ينبغى أن نركز عليه فى تعليم اللغة لا فى إلغاء قواعدها، إذا نحن استطعنا تقسيم اللغة إلى مستويات ومراحل، وتقسيم المتعلمين لها كذلك إلى مستويات ومراحل.

وسوف نرى أن اللغة فى حركة تطور دائم، وليس من الضرورى أن يكون هذا التطور دائمًا إلى الأقوى والأحسن، فربما تتطور أحيانًا إلى مراحل من الضعف والاختلاط بلغات أخرى، والاقتراب من مستوى العامية، كما سنلاحظ فى النموذج التالى من تاريخ الجبرتى.

النموذج الثانى:

من كتاب: عجائب الآثار للجبرتى (١٦٩٨ - ١٧٧٤م)

«موت الحاج صالح الفلاح»

ومات الحاج صالح الفلاح، وهو أستاذ الأمراء المعروفين بمصر، المشهورين بجماعة الفلاح، وكان متموِّلاً ذا ثروة عظيمة وشح، وأصله غلام يتيم فلاح، وكان خادمًا لبعض أولاد شيخ البلد، فانكسر عليه المال فرهن ولده عند الملتزم ومعه صالح هذا حتى غلق أبوه ما عليه من المال، واستلم ابنه ليرجع به إلى بلده، فامتنع صالح وقال: «أنا لا أرجع إلى البلد». وألف المقام ببيت الملتزم، واستمر به يخدم مع صبيان الحريم، وكان نبيهًا خفيف الروح والحركة، ولم يزل ينتقل فى الأطوار حتى صار من أرباب الأموال، واشترى المماليك والعبيد والجوارى ويزوجهم من بعض، ويشترى لهم الدور، ويدخلهم فى الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لأرباب الحل والعقد، والمتكلمين، وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة، كتخداءات واختيارية، وأمراء طبلخانات وجاويشيّة وأوده باشيه، وغير ذلك، حتى صار من مماليكه ومماليكهم من يركب فى العذارات فقط نحو المائة، وصار لهم

بيوت وأتباع ومماليك، وشهرة عظيمة بمصر، وكلمة نافذة، وعزوة كبيرة، وكان يركب حمارًا، ويعتم عمة لطيفة على طربوش، وخلفه خادمه، ومات فى سن السبعين، ولم يبق فى فمه سن».

وهذا نص، يظل محتفظًا بانتمائه إلى العربية، رغم شيوع الألفاظ والمصطلحات التركية به، ويؤكد فى صورته تلك المختلطة بالعامية والتركية، أن العربية ليست لغة محنطة، وأنها تتحرك فى موجات التطور الصاعدة والهابطة، وتتفتح أنسجتها لقبول حصاد اللغات والحضارات الأخرى، وتظل مع ذلك محافظة على خيوط النسيج العام، فى صيغ الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والرفع والنصب والجر، وهى خطوط عامة تحفظ لمسيرة أية لغة خطها التطورى العام، ولا ينبغى أن نتقدم بسهولة، فنقترح حذف ما لا يعجبنا منها أو ما لا يرضى ذوقنا فى لحظة عابرة.

وإذا كانت اللغة قد بلغت فى مرحلة الجبرتى هذه الدرجة من استرخاء أنسجتها، فإن هذه اللغة ذاتها هى التى أعادت استجماع قواها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بفضل شيوع الطباعة والصحافة على نحو خاص وزادت انتعاشًا وخفة وطواعية مع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، التى لايمكن أن ينكر أحد آثارها الحسنة فى تطور اللغة، وإن كنا ينبغى أن نعمل جميعًا على تلافى آثارها السيئة، التى يمكن أن يكون لها أضرار فى التدمير توازى أو تزيد على ما كان لها من فوائد فى البناء.

والذى يقرأ الآن مقتطفات من لغة الصحافة العربية المعاصرة، يدرك تمام الإدراك، أن هذه اللغة ليست محنطة على الإطلاق،

وأنها قابلة للصعود والهبوط على قدر همة أهلها، وأنها من الطواعية بحيث تستطيع أن تقدم نماذج للصحة اللغوية، تختلف عما كان مألوفا عند أبى حيان التوحيدى فى القرن الرابع الهجرى، وعند عبدالرحمن الجبرتى فى القرن الثامن عشر الميلادى، مع انضواء الصور الثلاثة للصحة اللغوية تحت عباءة اللغة العربية المتطورة.

وهذا مظهر من مظاهر الثراء تحسدنا عليه مسيرة أى لغة أخرى، لكنه لا ينبغى فى الوقت ذاته أن يكون قيدًا من قيود الجمود، يمنع اللغة من التطور، ويجعلها تستحق التحنيط.

وسنرى الآن بعض نماذج من لغة الصحافة والكتابات المعاصرة تؤكد هذه المرحلة من التطور.

النموذج الثالث:

(اختراع رصيف)

مقال للأستاذ/ صلاح منتصر
(صحيفة الأهرام ٢٠٠٤/٨/١٠)

تصوروا أننا فى مصر، لم نتوصل بعد إلى اختراع الرصيف، وأن محاولات مضنية ومستمرة ومكلفة ماتزال تبذل فى مختلف أحياء القاهرة، وكل مصر للتوصل إلى الرصيف!

عدت إلى المراجع وعرفت أن أول رصيف لشارع بدأ فى فترة الإمبراطورية الرومانية، إلا أن لندن هى أول مدينة أقامت رصيفًا للمشاة له بردوريه كما نسمى نحن شقة الرصيف، وكان ذلك فى عام ١٧٦٥، وقد عرفت المدن الأخرى من تجربة لندن فائدة الرصيف لحماية المشاة وتوفير الراحة لهم، فبدأوا هم الآخرون فى بناء أرصفة فى شوارعهم.. ومع التجارب التى جرت فى هذه البلاد وفى أمريكا أصبح ملحوظًا اتفاق جميع الدول على مواصفات موحدة لإقامة الرصيف، سواء من حيث استخدام طبقات معينة من الأسفلت فى رصفه، وارتفاع محدد يسمح بصعود وهبوط المشاة منه فى سهولة، مع مراعاة انحدار معين فى جانب الرصيف؛ لنزول المطر خاصة فى مدن الغرب المعروفة بكثرة أمطارها.

حدث هذا الاتفاق على شكل ونوع وارتفاع الرصيف منذ أكثر من مائة سنة، ومن ينتقل من جنيف إلى باريس إلى لندن إلى بروكسل إلى لشبونة.. إلى.. إلى.. يشعر أن المناظر تتغير، ولكن أساسيات الأرصفة للمشاة ثابتة.. تضيق وتتسع فى بعض الشوارع حسب كثافة المرور فى الشارع واتساعه، ولكن الأساس فى الجميع واحد، إلا فى مصر.. تنتقل فى القاهرة من حى إلى حى، بل من شارع إلى شارع فى نفس الحى فتجد تشكيلة واسعة من الأرصفة المختلفة عن الأخرى.

رصيف عال ورصيف منخفض، ورصيف يحتاج إلى مصعد لصعوده، ورصيف مرصوف وآخر بالبلاط، وثالث بلاطه عريض، ورابع مزروع داخله شجر، وخامس بدون شجر، وشارع كامل بدون أى رصيف؛ لأن التجارب أنهكته، فكان أن قرر المسئولون تركه فى العراء!

ومن يتابع حركة تغيير الأرصفة فى مصر يكتشف أن مصر هى أغنى دولة فى العالم، إلى الحد الذى مازالت فيه فى هذا الزمن تبحث عن الرصيف المناسب وتحاول اختراع رصيف مميز.

النموذج الرابع:

مع المرأة التى قالت: أنا سعد زغلول!

مقال للأستاذ/ رجاء النقاش
(الأهرام ٢٠٠٥/٨/٧)

والفصل الذى كتبه الأستاذ محمد عودة تحت عنوان «الزغلوليات» ليس ترجمة كاملة، وإنما هو عرض وتلخيص لكتاب كتبته الصحفية الأمريكية «جريس تومسون ستون» عن كفاح النساء المصريات فى ثورة ١٩١٩، وهذا الكتاب صادر سنة ١٩٢٢، وقد اختارت الكاتبة الأمريكية أن تسمى نساء الثورة المصرية اللواتى التقت بهن باسم «الزغلوليات» نسبة إلى سعد زغلول قائد الثورة، وأولى هؤلاء «الزغلوليات» هى «صفية زغلول» زوجة «سعد زغلول». وتقول الكاتبة الأمريكية عنها: «إن زوجها سعد زغلول قد تم اعتقاله للمرة الثانية فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١، بعدما رفض أن يعتكف فى عزبته، وشهدت صفية هانم اعتقاله، وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت إلى منفاه فى جزيرة «سيشل»، وقد ردت صفية هانم ردًّا تاريخيًّا قاسيًا عندما اتصلت بها دار المندوب السامى البريطانى لتقول لها إنها تستطيع

اصطحاب زوجها إلى منفاه فى جزيرة «سيشل»، فقالت للمتحدث البريطانى: أخبر سعادة المندوب السامى أننى سأظل فى القاهرة وسأعمل ما فى وسعى لأتم عمل زوجى، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد، ولكنكم لا تستطيعون أن تنفوا روحه؛ لأنها موجودة وسوف تظل موجودة، وفى بيته، وسأكون أنا: سعد زغلول، حتى يعود، وحتى لو مات، فسيأتى كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف، وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة فى سبيل استقلال مصر!!

وعندما وجهت الكاتبة الأمريكية إلى «صفية زغلول» سؤالاً عن مستقبل المرأة المصرية، قالت لها صفية هانم: «.. مستقبلها رائع. إننى أنا نفسى لا أكاد أصدق التطور الذى حدث. إن المرأة المصرية تتقدم إلى الأمام بخطوات واسعة. زوجى «سعد زغلول» رجل متحرر وهو يؤيد حقوق المرأة ومطالبها، والحجاب ـ وتقصد النقاب ـ ليس من ديننا فى شىء، ولابد من أن نطرحه ونتحرر منه نهائيًا فى يوم من الأيام».

ولنتذكر أن هذا الكلام كانت تقوله صفية هانم نحو سنة ١٩٢١.

ثم تقدم الكاتبة الأمريكية بعد ذلك نماذج بديعة من النساء اللواتى رأتهن حول صفية زغلول، وفى بيتها وبيت سعد، الذى أصبح فيما بعد معروفًا باسم «بيت الأمة»، وكانت الكاتبة الأمريكية قد زارت البيت مرات عديدة وأصبحت قريبة جدًا من مجتمع هذا البيت الوطنى الكريم.

النموذج الخامس:

(عن القراءة الأمريكية للحالة الإسلامية)

مقال للأستاذ / فهمى هويدى
(الأهرام ١٠/٨/٢٠٠٤)

عندى عدة ملاحظات بخصوص التقرير الأمريكى حول الحالة الإسلامية، الذى نعرف أنه لم يكن عملاً خيريًّا ولا هو لوجه الله، ولكنه أعد لحساب وزارة الدفاع الأمريكية.

ولست معجبًا بالتحليل الوارد فى التقرير، واستيائى لا حدود له من مقاصده، ولكنى مقدر للجهد الذى بذل فيه ومتفهم لحقيقة أنه، فى نهاية المطاف، يتحرى المصلحة الأمريكية، ويرسم خريطة الطريق للنفاذ إلى قلب المجتمعات الإسلامية، واستمالة المتدينين وكسبهم إلى صف الرؤية الغربية والأمريكية بوجه أخص، ولست أخفى تقديرى لجهد مؤسسة راندا وخاصة السيدة تيربل ينبارد التى كتبت التقرير، حين قارنت الجدية التى تم التعامل بها مع الموضوع بالهزل والغوغائية التى اتسمت بها كتابات عربية عدة فى ذات الموضوع.

وقبل أن أستطرد فى تسجيل ملاحظاتى حول التقرير، ألفت النظر إلى أن ملف التيار الإسلامى ليس قضية الساعة، إلا إذا كنا نتحدث عن إرساء قواعد الديمقراطية والدفاع عن التعددية السياسية والفكرية، ذلك أن مصير الأوطان والأمة كلها أصبح فى خطر الآن، بحيث لم تعد هناك فرقة سياسية ناجية، والحاصل فى العراق يشهد بما نقول، فالاحتلال وضع القوى الوطنية كلها فى خندق واحد، المسلمين وغير المسلمين، والناشطين الإسلاميين، والعلمانيين، والمؤمنين والملحدين وعبدة النار والشيطان.

النموذج السادس:

(الشعراء والسلطة)

من مقال للأستاذ/ فاروق شوشة
(الأهرام ٢٠٠٤/٤/٢٥)

السلطة غالبًا تمسك فى يدها خيوطًا تتحكم بها فى ألسنة الشعراء، فيسود - أحيانًا - المديح والنقاش والتكسب، وأحيانًا أخرى نجد الهجاء السياسى عالى النبرة، وتارة يتحول المديح الشخصى إلى تفاخر بالأنساب والإنجازات والأمجاد، وتارة أخرى يصبح الشاعر لسان النقد الصادق، وفى عصور القهر قد تتعدد ألوان التعبير، فيلجأ الشاعر إلى التحايل والحيل الفنية حتى لا يحاسب على صراحته وصدقه.

كانت قضية الإعلام أو الدعاية، وما تفرع عنها من فنون شعرية كالفخر والحماسة والمديح والهجاء، وتأثيرها على مسيرة الشعر العربى وفنية القصيدة الشعرية العربية منذ نشأة هذا الشعر فى عصوره الأولى - كانت شاغلة لاهتمام الناقد الكبير الراحل الدكتور عبدالمحسن طه بدر منذ أكثر من أربعين عامًا.. وكان يرى من سلبيات هذا التأثير أو هذه الجناية ما يمكن تسميته بالمباشرة والخطابية والمبالغة الممجوجة والبعد عن الصدق الفنى فى الأداء الشعرى.

النموذج السابع:
(مؤامرات وخزعبلات)
للأستاذ/ حسن المستكاوى
(الأهرام ٢٦/٤/٢٠٠٤)

ارحمونا من المؤامرات والخزعبلات التى تعلق عليها الهزائم والخيبة والعجز وقلة الحيلة، وغياب التركيز، فهزيمة الزمالك بدأت فى القاهرة بالاستهتار بفريق الجيش الرواندى، وهو درس آخر لمعنى إصابة مرماك بهدف أو بهدفين على أرضك، ثم اكتملت الهزيمة فى كيجالى بفروق القوة والسرعة والإرادة، وقد كانت فى مصلحة العساكر، وليست فى قوة الكباتن، بجانب طريقة اللعب للعبقرى البرتغالى فينجادا، كأن إيه. سى. ميلان يواجه أسمنت أبوقرقاص، فلا عمق دفاعى، ولا حذر، وإنما استخفاف واستمرار للاستهتار، وانشغال لاعبين بآلاف الجنيهات المنتظرة؛ لتجديد العقود ونهش قطعة التورتة، والمدهش أن تنشغل الإدارة بتجديد عقد لاعب، سينهى عقده بعد عامين، وأن تنشغل بلاعب يلوح بعقد جديد، وعرض جديد من فريق آخر وهو مازال متعاقدًا مع الزمالك.. ما هذا؟

النموذج الثامن:

(بن لادن يشكر بوش)

للأستاذ/ سلامة أحمد سلامة

(الأهرام ٢٠٠٤/٤/٢٦)

بوسع بن لادن وجماعته الآن، أن يتوجه مع كل سيارة ملغمة يفجرها بالشكر إلى الرئيس بوش وحليفه شارون اللذين قدما لقوى الإرهاب العالمية دعمًا معنويًا وسياسيًا لم يتوقعه أحد، فحين يطلب بوش من الشعب الفلسطينى والشعوب العربية أن تشكر شارون على مبادرته بالانسحاب من جانب واحد من قطاع غزة، وأن تتواصل عمليات اغتيال القيادات الفلسطينية، وتلغى قرارات الأمم المتحدة، ويتعهد من أجل تحقيق ذلك بدعم أمريكى بغير حدود لسياسات الفصل العنصرية الإسرائيلية لسحق الشعب الفلسطينى، وإذلال الشعوب العربية ونظمها، فليس هناك شك فى أن يبادر بن لادن إلى استغلال هذه الفرصة الذهبية، وأن يكون ذلك دافعًا لأى تنظيمات إرهابية فى تجنيد الألوف من الشباب اليائسين والمحبطين والضائعين الذين لم تعد أمامهم من أهداف غير الضرب فى أى اتجاه، وفى كل اتجاه باسم الدفاع عن الدين والعرض والأرض.

النموذج التاسع:

(نصف كلمة)

للأستاذ/ أحمد رجب
(صحيفة الأخبار ٢٠٠٤/٧/٢٣)

لاتزال حرائق سوهاج حدثًا ينقصه السبب المقنع، والأرجح - كما يقال - إن قومًا من المجوس عبدة النار استوطنوا المكان وأقاموا طقوس عبادة النار، ويرجع استمرار الحرائق إلى مقاومة المجوس لرجال المطافئ، إذ يعتبر المجوس رجال المطافئ من الكفار.

النموذج العاشر:

(مـواقـف)

للأستاذ/ أنيس منصور
(الأهرام ١٥/٩/٢٠٠٤)

سألت عددًا من الأصدقاء فى إسرائيل: وأنتم تعلمون أولادكم أية لغة الآن؟!

وكان الجواب: اللغة العربية، هى اللغة الثانية أو هى اللغة الثالثة.

المهم أن يتكلموا العربية؛ فإسرائيل دولة شرق أوسطية، وأنهم يجب أن يتعايشوا لا أن يقفلوا الباب والشباك فى وجه كل ما هو عربى، فلابد من السلام مع العرب فى السنوات العشر القادمة أو فى هذا القرن.. لابد من السلام لتكون حياة.. ولا سلام بغير عدل فيأخذ كل ذى حق حقه.. وكفانا جوعًا وخرابًا ودمًا!

وقد قرأت استفتاء لصحيفة «إندبندانت» الإنجليزية عن الإقبال على دراسة الشرق الأوسط واللغة العربية واللهجات أيضًا.

فجاء فى الاستفتاء أن عددًا متزايدًا من الطلبة اتجهوا إلى دراسة الشرق الأوسط، وأنهم تحولوا فى بريطانيا عن الاهتمام بأمريكا وآدابها وتاريخها، واتجهوا تمامًا إلى الشرق العربى والشرق الأوسط الأكبر حتى إيران وباكستان وأفغانستان.

وجاء فى الاستفتاء أيضًا أن معاهد فى بريطانيا اعتذرت عن عدم قبول عدد من الطلبة المتفوقين، فلم تعد هناك أماكن، وأعلنت هذه المعاهد المتخصصة عن حاجتها إلى أساتذة كبار ومستشرقين وعلماء وأدباء عرب.

ونحن أولى من كل هؤلاء.. فحاجتنا إلى أن نعرف عالمنا العربى أكبر وأكثر ضرورة.. بل إن حاجتنا إلى أن نعرف بلادنا أيضًا.

والذى نراه على التليفزيون المصرى يوجع القلب، فقد اعترف شباب من الجيزة بأنهم لم يروا الهرم - وهوه حيروح فين واحنا وراه والزمن طويل - وهى نكتة سخيفة تدل على أن صاحبها لايستحى من جهله!

ويكفى أن تسمع طالبًا جامعيًا يقول: إن «طابا» مساحتها ستون كيلو مترًا.. أو من يقول: لا بل عشرون كيلو مترًا!

تصور! مع أن مساحتها أقل من كيلو متر مربع.

النموذج الحادى عشر:

(العربية لغة الحضارة)

للأستاذ/ شريف الشوباشى

من كتاب: «لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه»

عندما بزغ نور الحضارة الإسلامية، أصبحت العربية هى لغة العلم والمعرفة والتفوق فى كل المجالات، وكان علماء العالم يضطرون إلى الإلمام بالعربية ليكونوا على معرفة بآخر ما وصل إليه العلم الحديث فى ذلك العصر، نظرًا لأن كل الاكتشافات والبحوث العلمية القيمة كانت تكتب بالعربية، وتمامًا كما أن علماء اليوم الذين يجهلون الإنجليزية يصبحون متخلفين عن ركب العلم والمعرفة، فإن علماء الماضى كانوا يضطرون اضطرارًا لتعلم العربية، فكل الاختراعات والأدوات العلمية التى كانت تسهل حياة الإنسان، كانت تنطلق من العالم العربى الإسلامى، وتصاغ بلغة الضاد.

هذه النصوص التى أوردناها تؤكد على القدرة الهائلة التى تظهرها العربية الحديثة من خلال لغة الصحافة والكتابات المعاصرة بصفة عامة، والتى تثبت أنها لغة أبعد ما تكون عن أن توصف باللغة المحنطة، وأقرب ما تكون إلى اللغات المتطورة، التى تحافظ على العناصر الرئيسية للمكونات اللغوية، والتى تشكل الخط الممتد والملامح المشتركة التى لا غنى عنها لأى ظاهرة حضارية عميقة، ولكن هذه العناصر الرئيسية لا تقف حائلاً دون تطور العناصر الجزئية، سواء كان هذا التطور من خلال العلاقات الداخلية للتراكيب، وتقليل كثافتها كما لاحظنا فى تجاوز تراكيب كتلك التى كان يستخدمها أبو حيان التوحيدى، أو التدرج فى عالم دلالات الألفاظ، وقد خطت العربية فى هذا المجال خطوات هائلة بوسائل متعددة من بينها استخدام ألفاظ قديمة فى مدلولات حديثة، مثل كلمة «قطار» التى كانت تستخدم بمعنى الإبل التى يسير بعضها وراء بعض، وكان يقال: «جاءت الإبل قطارًا»، فلما ظهر القطار الذى نعرفه الآن، أهدته اللغة من مدخراتها هذا الثوب الذى كأنما «فُصل على قدّه» (وتلك العبارة الأخيرة بدورها فصيحة جدًّا، مع أننا نظن أنها عامية)، ومثل كلمة «المسرح» والتى كانت تطلقها اللغة على مَرْعى السَّرْحِ، والسَّرحُ هى الماشية التى تسرح على رزقها، فلما نقل إلينا فن المسرح أهدته اللغة من خزائنها، هذه الكلمة التى لا نجد أية غرابة الآن فى استخدامها.

ومنها جاءت كلمة المسرحية للقطعة التى تؤدى على المسرح

وعندما تم البحث عن كلمة تناسب الذين يؤدون المسرحية، ويجعلون أحداثها مماثلة للواقع، برزت اقتراحات كثيرة كان من بينها اقتراح كلمة «منافق» باعتبار أن المؤدى يقول كلامًا مختلفًا حسب طبيعة الدور الذى يسند إليه، وفى النهاية انتصرت كلمة ممثل لخلوها من الدلالات الجانبية لكلمة منافق.

وفى الوقت ذاته تلجأ اللغة إلى التوقف عن استخدام كلمة فى معنى معين أمام تطور الكلمة فى لغة الحياة اليومية فى اتجاه معنى آخر، ومن الأمثلة الطريفة فى هذا المجال ما صنعته العربية المعاصرة، حين هجرت الكلمة التى كانت تطلق على «النافورة» أو «عين الماء الجارية» التى كانت تزدان بها القصور الجميلة على امتداد عصور الحضارات العربية وكانت الكلمة التى تطلق على «النافورة» مشتقة من كلمة خرير الماء، فكانت تسمى «الخرَّارة» ومازالت هذه الكلمة فى القاموس حتى الآن، تفسر بأنها «عين الماء الجارية».. لكن اللغة توقفت تلقائيًا عن استخدام هذه الكلمة التى كانت مرتبطة بالجمال، عندما فاحت منها روائح أخرى بعد ارتباطها بالمخلفات الآدمية، ولقد حدث للأستاذ أحمد أمين موقف طريف مع هذه الكلمة من خلال استخدام «مستشرق» لها لم يكن قد تولد لديه الإحساس بالتطور الاستعمالى الذى لحق بها، وذلك عندما أهدى له كتابه «فجر الإسلام» وأعجب المستشرق بالكتاب كثيرًا، ورأى أنه مثل نافورة الماء الزلال، التى تفجرت فى صحراء الحياة الفكرية الجافة، فكتب إليه: «لقد أهديت للحياة الفكرية العربية خرَّارة عظيمة»!

إن اللغة العربية من خلال هذه الطواعية استطاعت أن تعبر عن كثير من الاحتياجات المعاصرة لأبنائها، ونحن إذا نظرنا في نماذج المقالات التي أوردناها ومئات مثلها في الصحافة العربية كل يوم، نجد تنوعًا واسعًا بين مقال في رياضة كرة القدم، أو مجالات الإبداع الشعرى، أو مشاكل الأرصفة غير المنتظمة أو تعقيدات السياسة الدولية، أو النكتة الساخرة أو التراث اللغوى، وكلها مجالات يتم التعبير عنها في سهولة ووضوح، تسمح لمن لديه أدنى حظ من الثقافة العربية، أن يستوعب الأفكار الواردة بها، بل إن من الشائع في قرى مصر وغيرها من العالم العربى، أن يحرص الأميون وأشباه الأميين على سماع مثل هذه المقالات والأحاديث المكتوبة بالعربية المعاصرة أو العربية الإعلامية دون أن يجدوا صعوبة في متابعتها واستيعابها. إن كثيرًا من ألوان الطواعية والتطور اللغوى يمكن أن يلاحظها المتأمل في مجالات أخرى غير مجالات التراكيب والدلالة، ولاشك أن هناك كثيرًا من ألوان التعبير يمكن أن يلاحظها النحاة المعاصرون، حين يركزون على طريقة استخدام الأدوات ووسائل الربط بين المفردات والجمل، ونسق الجملة الفعلية والاسمية ودرجة الشيوع في كل منهما بالقياس إلى درجات الشيوع في العربية التراثية، وأنواع المكملات والمفاعيل، وما خفت درجة استعماله أو توارى، وما ازداد أهمية وشيوعًا، وما طور وظيفته، أو وظائفه التقليدية ودخل إلى مجالات جديدة وكذلك الشأن في الحروف التي تشكل شبكة اتصالات كبرى تربط العناصر اللغوية المتناثرة وتضع كلاً منها في مكانه الملائم على سلم الأداء والتوصيل والتطور الذى دخل على هذه الشبكة إذا

رصدنا استخدامها في العربية المعاصرة، مقارنة بما كان عليه الشأن في العربية التراثية.

وكل تلك العناصر المتطورة وغيرها مما يعرفه علماء اللغة والنحو، هي التي تشكل المقياس الحقيقي للحكم على لغة بأنها تسعى إلى تجديد خلاياها ومواصلة الحياة (حتى وإن كانت في حاجة إلى مزيد من الحيوية وسرعة التحول، ونفض الكسل والجمود) أو أنها تحولت إلى جسد ميت محنط يستحق أن يبحث له عن مقبرة مهيبة تليق به!

ولاشك أننا نستطيع أن نسجل عتابًا كبيرًا على مجمل علماء النحو واللغة المعاصرين لعدم اهتدائهم إلى خطة شاملة، ترصد من خلال عمل جماعي - ولو لأجيال متعاقبة - خطوات التطور الهائلة، التي مرت بها اللغة العربية دون أن نلتقطها ونستعين بها في تطوير طريقة تعليمها وتقديمها إلى الناس، وهو تقصير آن الأوان لتلافيه، وإنقاذ اللغة من آثاره السلبية.

إن قابلية التطور في العربية، لم تساعدها فقط على المقدرة على التكيف والاستجابة للمستجدات، والصمود في وجه المخاطر التي تتربص بها عامدة في كل مكان (رغم تقصير الكثير من أبنائها وعلمائها، بل وتواطؤ البعض منهم).

ولكن هذه القابلية، تجعلها تستثير العناصر الكامنة فيها لمواجهة أكبر ثورة في عالم الاتصال اللغوي، تلك المتمثلة في موقع اللغات في عصر المعلومات، والتي بسببها أصبحت كثير من اللغات مهددة بالانقراض أو الاختفاء، نظرًا لعدم قدرة عناصرها

اللغوية على التكيف مع مستجدات شفرات الاتصال، وتغير وضع كثير منها في سلم أولويات اللغات كما أشار إلى ذلك تقرير «الألمناك».

وامتلاك العربية لعناصر مواجهة ثورة الاتصال اللغوى فى عصر المعلومات، يعبر عنه واحد من كبار علماء الهندسة اللغوية فى العصر الحديث، هو الدكتور نبيل على فى كتابه القيم «الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ عالم المعرفة» حين يقول ص٢٣٨:

«لقد أثبتت العربية جدارتها على مر العصور، وحقها فى أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الإسلامى على سرعة انتشارها واندماجها فى بيئات لغوية متباينة، لقد نجحت العربية فى عصور الازدهار، أن تكون أداة فعالة لنقل المعرفة، حتى قال القائل: عجبت لمن يدعى العلم ويجهل العربية.

ومن منظور فقه اللغة تتسم اللغة العربية بالعديد من الخصائص الجوهرية التى تؤكد عالميتها، ومن أهمها التزامها بالقاعدة الذهبية، فيما يخص التوسط والتوازن اللغوى؛ فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى على مستوى جميع فروعها اللغوية كتابة وأصواتًا وصرفًا ونحوًا ومعجمًا، فهى على سبيل المثال تجمع بين الجمل الإسمية والفعلية وتكتفى بمطابقة جنس الفعل مع جنس الفاعل (ذهب فلان وذهبت فلانة) وهو ما لا تلتزم به الإنجليزية، فى حين تتطرف بعض اللغات فى مطابقة الفعل مع الفاعل والمفعول معًا، وتصل العربية المعرفة، ولا تصل النكرة، الرجل الذى كتب ـ ورجل كتب ـ فى حين تصل الإنجليزية النكرة

والمعرفة the man who wrote.. a man who wrote ولا تقبل الصينية أيًّا منهما، وتتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق، وتآخٍ محسوب بين فروع اللغة المختلفة.

ومن منظور معالجة اللغات الإنسانية آليًّا بواسطة الكمبيوتر أثبتت العربية، أيضًا، جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوى الذى أشرنا إليه أعلاه يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية لتلبية مطالب اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية (وقد أثبتت البحوث التجريبية، بما لا يدع مجالاً للشك، إمكان استخدام نظم الإعراب والصرف الآلية المصممة للغة العربية فى مجال اللغة الإنجليزية).

وبقول آخر - كما يقول الدكتور نبيل على - فإن العربية لغويًّا وحاسوبيًّا، يمكن النظر إليها، بلغة الرياضيات الحديثة، على أنها فئة عليا supper set تندرج فى إطارها كثير من اللغات الأخرى كحالة خاصة من هذه الفئة العليا.

وفى ظل العولمة وثورة المعلومات تتعرض العربية لحركة تهميش نشطة، بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسى والتكنولوجى والمعلوماتى، وتشارك العربية فى ذلك، معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التى تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالى ضد العربية نظرًا إلى شدة الارتباط بينهما.

لقد نقلنا هذا النص، بكامله لأنه صادر عن عالم متخصص تحتل بحوثه التنظيرية والتطبيقية فى مجال هندسة اللغات مكان الصدارة

فى العالم العربى، ولأنه إلى جانب ذلك يقدم صورة علمية تحليلية، للمستقبل المشرق الذى يمكن أن تعيشه اللغة العربية، لو قويت همة أبنائها قليلاً، فساعدها من يمكن أن يقدم المساعدة من علماء اللغة والاتصال، برسم أطر مسيرتها، ومن علماء فروع المعرفة العلمية والإنسانية الأخرى بتنشيط استعمالها وتجديد مصطلحاتها، ومن الكتاب ورجال الإعلام بالحرص على سلامتها، واستكمالهم بعض ما لم يتمثلوه من كنوزها بدلاً من معاداة ما لايعرفون من أسرارها والمطالبة بطمسه وإلغائه، لأن كل تخصص يتطلب الاجتهاد فيه، الإلمام به أولاً، ثم طرح المقترحات حوله ثانيًا.

وفى كل الحالات، فإن شهادة الدكتور نبيل على تدفعنا خطوة إلى الأمام فليست العربية لغة محنطة فى الماضى، وليست مجرد لغة صالحة للتعبير عن الحاضر، ولكنها أيضًا قابلة للمنافسة فى مجال التعبير عن المستقبل، إذا عرفنا كيف نتلافى الجمود والتسيب معًا، على النحو الذى سنراه فى الصفحات التالية.

اللغة القومية
وتوطين العلم

تحتل اللغة بُعْدًا شديد الأهمية فى التكوين العلمى الفردى والجماعى للأمة، ولا يقف دور اللغة فى تلقى العلم أو توصيله، عند مجرد دور الأداة الناقلة أو القناة الموصّلة، تَعْبُر خلالها «المعلومة» إرسالاً أو استقبالاً، وإنما يمتد دور اللغة، ليشكل ضفيرة قوية مع المعرفة ومع الهوية، تتبادل فيما بينها وسائل التغذية والتنمية، فتقوى اللغة بقوة العلم المتشكل من خلالها، والذى يبحث لنفسه خلال تشكله وتمدده وتفرعه عن أوعية لغوية ملائمة، وخلال هذا البحث، تتجدد خلايا اللغة التى يتعامل معها، فتعرف إحياء الخلايا الضامرة، وتنشيط الخلايا الحية، وتوليد خلايا أخرى مناسبة، وتزداد صلتها قوة بالحياة وبالأحياء.

وفى الوقت ذاته يقوى العلم خلال انتشاره وتمكنه فى النفوس عندما يتحرك فى هذه النفوس باللغة التى تألفها، وتتصل بها اتصال الوجود، وتتكون فيها مع تكون الحواس، فيصادف العلم خلال مسيرته فى هذه النفوس مرايا من شأنها أن تكون أكثر صفاء وجلاء، وأن تنعكس عليها أشعته بطريقة أكثر تألقًا، وأن تتسرب هذه الأشعة

إلى مناطق أكثر عمقًا وأبعد غورًا، وأن تستقر بها وتتفاعل فتولد دورة للامتزاج بين اللغة القومية والعلم الذى يصاغ بها تتوالد عنها دورات لا نهاية لها فى نفوس الأفراد والجماعات، ويتشكل من خلال هذا كله ما يعرف بتوطين العلم.

إن «توطين العلم» هو وحده الذى يستطيع أن يتيح أمام الفرد وأمام الأمة فرصة المشاركة الفعالة فى العملية العلمية «إنتاجًا واستهلاكًا»، وهى مرحلة ضرورية لكل الأمم، التى تود أن تشارك فى صنع الحضارة الإنسانية أو تنتسب إليها انتسابًا فاعلاً، وتلك مرحلة تختلف عن مراحل أخرى فى العملية العلمية ، كالتى يعيشها العالم العربى الآن ، ويمكن أن يكون هدفها فى أحسن الأحوال «استهلاك» العلم أو تعلم مبادئه، لكنها لا يمكن أبدًا أن ترقى إلى مرحلة الإنتاج أو المشاركة الفاعلة، فى غياب الصلة القوية بين اللغة القومية والعلم، أى فى غياب الأساس الأول لتوطين المعرفة.

وقد استوعبت كل الحضارات هذا الدرس الأولى، ففكرت وأنتجت بلغاتها دون أن تغلق الباب أبدًا أمام الاستفادة والاستيعاب والهضم، بل والاقتراض من الثقافات الأخرى، و لم يكن متصورًا أن يصوغ الفراعنة تقدمهم المعرفى فى الطب والتحنيط وهندسة البناء والحكمة وغيرها من فروع المعرفة، بلغة اليونان، ولا أن يصوغ اليونان إنجازاتهم فى الفلسفة والمسرح وعلوم السياسة والاجتماع بغير لسانهم القومى، ولا أن يستوعب الرومان حضارة اليونان التى تأثروا بها، وحاولوا الإفادة منها والإضافة إليها بغير لغتهم اللاتينية، وكذلك كان الشأن بالنسبة لحضارات الشرق التى نقلت ميراث

الحكمة الإنسانية بلغاتها المتألقة على صفحة الحضارة الإنسانية والتى تسجل إسهامات كل أمة فى رصيد العلم من خلال لغتها.

وقد استوعبت الحضارة العربية الإسلامية هذا الدرس الخالد، عندما آلت إليها تركة الثقافة الإنسانية المتراكمة عبر العصور، فأزاحت أولاً من طريقها معوقات الاستقبال والتحصيل، من خلال فتح النوافذ الواسعة، وإلغاء الحواجز، حتى ما كان يُظن أنه ضرورى لحماية العقيدة، ثم من خلال خلق الوسائل وتشجيع تفعيلها، فكانت حركة الترجمة العظيمة التى عرفتها هذه الحضارة فى العصر العباسى وما بعده، وكانت حركة النهم التى قادتها الخلافة الإسلامية والعلماء المسلمون، ممثلة فى الحصول على تراث الأوائل بكل ثمن، حتى كانت معاهدات الصلح وإنهاء الحروب تتجسد فى شكل الحصول على مكتبات كاملة تنقل للحواضر الإسلامية للاطلاع عليها والإفادة منها، كما حدث فى الصلح الذى وقع بين المأمون والإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث واشترط فيه تنازل الامبراطور عن إحدى المكتبات الشهيرة فى القسطنطينية للمأمون، وكان من بين ذخائرها كتاب بطليموس فى الفلك فأمر بنقله إلى العربية وتم تشجيع الترجمة على النحو الأسطورى الشائع، والذى بلغ حدًّا يقال فيه إن صاحب الكتاب المترجم الجيد، كان يُمْنح وزنه ذهبًا.

وتم إنشاء بيت الحكمة فى بغداد وبه أقسام للترجمة والتأليف والبحث تحت رعاية المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ)، وتم الحرص على توطين العلم من خلال صياغته بالعربية، وهى الصياغة التى كانت تتطلب بالضرورة شدة الفهم والاستيعاب والإضافة والتعليق، وهى

إضافات اعتبرت في كثير من الأحيان معادلة للأصل الذى تمت ترجمته إن لم تكن أهم منه، وليست قيمة شروح ابن رشد لأرسطو خافية على أحد في تاريخ العلم في الغرب وكذلك الشأن بالنسبة لكثير من الشارحين والمعلقين، وهي إضافات لم يكن ليتاح لها أن تتشكل أساسًا إلا في حضن اللغة الأم، التي هي الوعاء الحقيقي لاستيعاب المعرفة، قبل الإضافة إليها.

يقول العالم الكبير أبو الريحان البيروني (ت ١٠٤٨): «وإلى لسان العرب نُقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت وحلّت في الأفئدة». وعبارة البيروني ذات مغزى عميق، فصبُّ العلم في اللغة الأم يحقق هدفين رئيسيين أولهما أن تزدان اللغة وتتألق وتصبح حيوية جذابة، وثانيهما أن يحل العلم المنقول بها في الأفئدة، فيستقر في النفوس والعقول تعمقًا وأخذًا وعطاء، ولا يظل قشورًا ورطانات على النحو الذى يكون عليه العلم في الأمم غير المتقدمة، وفي هذا الإطار اللغوى ـ العلمي الذى أشار إليه البيروني قدم هو نفسه إنجازات علمية رائعة، من خلال تفاعل اللغة العربية مع العلم، فكان إلى جانب ثقافته الأدبية واللغوية والتاريخية، عالمًا بالرياضيات والطبيعيات والفلك والطب والفلسفة، ومع أنه اعتبر من أكبر علماء مقارنة الأديان بكتاباته الشهيرة عن ديانات الهند ومذاهبها، وعُدَّ من كبار الفلاسفة بحواراته العميقة مع ابن سينا، إلا أنه أبدع باللغة العربية في الرياضيات والطب والفلك ما اعتبر إنجازًا طيبًا أضيف إلى رصيد المعرفة الإنسانية بعامة، ويقول مؤرخو العلوم إن ما دَوَّنه البيروني في كتاب «القانون المسعودى» يثبت

بالبرهان الهندسي قانونًا أشبه بقانون نيوتن لحساب الاستكمال، الذى ظهر بعده بستة قرون وأنه صاحب معادلة لاستخراج مقدار محيط الأرض، يسميها علماء الغرب «قاعدة البيرونى» وهو الذى قام بتعيين الكثافة النوعية لثمانية عشر معدنًا وحجرًا ثمينًا بدقة كبيرة، وغيرها من القوانين العلمية التى توصل إليها، وصاغها بالعربية.

و لم يكن البيرونى وحده فى هذا المجال فهنالك كتب جابر بن حيان فى العلوم، والحسن بن هيثم فى البصريات، وبهاء الدين العاملى فى الرياضيات، وابن سينا فى الطب، وأبو القاسم الزهراوى فى الجراحة، والكندى فى الفلسفة، وعلى بن رضوان فى التشخيص الطبى وغيرهم من مئات العلماء فى كل العصور والذين تمكنوا من صياغة أدق المعلومات العلمية المتخصصة بلغة عربية جميلة حملت اكتشافاتهم إلى التراث الإنسانى كله.

لقد كانت الدقة العلمية البالغة لهؤلاء العلماء، عاملاً هامًّا فى إثراء لغتهم العربية، التى صَبُّوا فيها معارفهم، وتحولت هى بدورها إلى وسيلة معرفية ليس لأبنائها فقط، ولكن لأبناء الإنسانية كلها، تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه، وهى تعلق على نص كتبه بالعربية الطبيب المصرى على بن رضوان فى القرن الحادى عشر، منذ نحو ألف عام: «يخيل إلينا ونحن نسمع ما قاله ابن رضوان، أننا أمام أستاذ فى الطب فى عصرنا الحاضر». أما النص الذى تعلق عليه، فهو نص فى طريقة تشخيص المرض، وقد ورد النص فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة، ويقول

فيه على بن رضوان: «تعرف العيوب بأن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة، وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة، مثل أن تنادى من بعيد فتختبر بذلك حال سمعه، وأن تختبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة، ولسانه بجودة الكلام، وقوته بحمل الثقل والمَسْك، والضبط والمشى، وأنحاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلاً ومدبرًا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفّهما؛ تختبر بذلك حال أحشائه، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض، وبالأخلاط، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط..» إلخ. وليس هذا النص وحيدًا فى التراث العلمى العربى، فهناك آلاف النصوص، ومئات الكتب والمخطوطات فى كل فروع التفكير العلمى باللغة العربية، تثبت المدى الذى وصلت إليه هذه اللغة فى التعبير عن دقائق المعرفة، والسر الذى جعل أهلها فى فترة من الزمن بفضل تمسكهم بها، يحتلون هذه المرتبة الرفيعة فى تاريخ المعرفة الإنسانية.

إن تعليق المستشرقة على هذا النص من تاريخ العلوم عند العرب يثير فى النفس آلامًا مريرة، عندما نتساءل عن حجم الدارسين العرب فى هذه التخصصات العلمية، الذين يملكون اهتمامات عميقة بالتراث العربى العلمى، ومن حسن الحظ أنه مازال لدينا نفر قليل من هؤلاء العلماء الأجلاء فى أرجاء العالم العربى مثل: أحمد فؤاد باشا ومحمود المنادى وعبد الحافظ حلمى ومحمد يوسف حسن ومحمود حافظ، وفى أوساط الاستشراق مثل فؤاد سيزكين، التركى الألمانى، ولكن من سوء الحظ أن جمهرة الدارسين من طلاب

الجامعات العربية، على مستويات الدراسة المختلفة بها، ومن الباحثين في المعامل ومراكز البحوث في الكيمياء والصيدلة وعلوم الأرض والفلك والطب، ربما لم يقع في يد أحدهم كتاب واحد من كتب التراث العلمي العربي، تلك التي كانت تترجم وتدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن الثاني عشر، مثل كتاب «التعريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي». وهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءًا، ومزود بوصف الآلات المستخدمة في إجراء العمليات الجراحية، وكيفية استخدامها مع بيان تفصيلات كل منها بالرسوم الإيضاحية، فقد نشرت ترجمته بالبندقية ١٤٩٧ واستراسبورج سنة ١٥٣٢، ونشر الجزء الخاص منه بالجراحة باللغتين العربية واللاتينية في لندن في أواخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٧٨، ثم أعيد نشره في لكنو بالهند سنة ١٩٠٨.

ولا ينبغي أن يتسرب إلى الأذهان أن الدعوة إلى دراسة هذه الكتب على يد العلماء وتحقيقها وتحليل محتوياتها، يعني بالضرورة الدعوة إلى تجميد تحصيلهم العلمي في فروع تخصصاتهم عند محتوياتها، بل إن دراستها ينبغي أن تكون مقترنة باليقين بأنها جزء من تاريخ العلم، وهو على أهميته جزء قد تم تجاوزه، ولكنه مع ذلك جزء ينبغي الاهتمام به لسببين رئيسيين:

الأول: غرس الثقة بالعقلية العلمية الحضارية التي ننتمي إليها، وتأكيد القناعة بأن هذه الشريحة التي استطاعت جذورها أن تتفاعل مع فلسفة العلم ودقائقه، وتستجيب لحاجات الإنسانية فيه، يمكن لفروعها أيضًا أن تواصل العطاء، إذا أعادت تكوين نفسها،

واستطاعت أن تصحح مواقع خطواتها، وهذه الثقة فى مجال العطاء العلمى شديدة الأهمية.

الثانى: هو المساعدة فى اختيار كثير من المصطلحات التى أثبتت دراسات المدققين فى تاريخ العلوم وحاضرها، أن التراث اللغوى فيها شديد الفائدة، وأن محاولة البحث الدائم عن اصطيادها من خارج المياه الإقليمية غالبًا ما يحمل معه من المحارات والطحالب والأعشاب الضارة، أضعاف ما يحمل من بعض اللآلئ المتفرقة.

ولعل هذه القضية تكون من أكثر القضايا التى أسىء استخدامها لتعويق عملية تعريب العلم، زعمًا بأن العلم الحديث مصطلحات معظمها باللغات الأوربية، وأن ذلك يقتضى دراسته وتدريسه بهذه اللغات، ويحول دون تعريبه، فقد أثبتت دراسات وإحصاءات كثير من العلماء المتخصصين فى فروع تعريب العلوم، عدم دقة هذا الزعم، مثل ذلك البحث الذى أجراه الدكتور مصطفى بن يخلف، وانتهى فيه إلى أن نسبة الكلمات المصطلحية فى المادة العلمية لا تجاوز ٢٥٪ منها، فى حين تحتل الكلمات العامة ٧٥٪ من لغة تلك المادة، وفى هذا الإطار يرى الدكتور حسنى سبح الرئيس السابق لمجمع دمشق أن الاهتمام ينبغى أن ينصب على اللغة الوسيطة بنفس الأهمية التى يعيرها للمصطلحات، وأن مقاومة الكثيرين للتعريب ما هى إلا لتدنى القدرة على استعمال لغة وسيطة رصينة، مع أن اللوم ينصب فى معظم الأحيان على المصطلحات والرموز.. إن قضية المصطلح ليست بصميم المشكلة، وإنما صميم المشكلة هو الاقتدار على

وعى المعانى العلمية، وتصورها ثم الإبانة عنها (انظر التعريب والتنمية اللغوية، للدكتور ممدوح خسارة ص٨٠).

إن هذه الروح الفطرية فى الربط بين توطين العلم، وتدريسه باللغة القومية هى التى سيطرت على أول تجربة حديثة مرت بها مصر والعالم العربى فى بداية الربع الثانى من القرن التاسع عشر، حين تطلع محمد على إلى إنشاء الدولة الحديثة فى مصر، وتطلع ببصيرته فأدرك ضرورة قيام هذه الدولة على أساس الارتباط بالعلوم الحديثة التى شكلت أسس النهضة الأوربية، وكان على صواب فى ذلك، ولكنه أدرك فى الوقت ذاته أنه لا يمكن غرس هذه العلوم فى نفوس المصريين، من خلال فصلها عن اللغة العربية، برغم حالتها الضعيفة آنذاك والتى خرجت بها من العصر المملوكى، وفى إطار هذا التصور، بدأت تجربة التحديث والتعريب فى وقت واحد سنة ١٨٢٦ بإنشاء مدرسة الطب فى أبى زعبل والتى انتقلت فيما بعد إلى مستشفى قصر العينى سنة ١٨٣٧، وغيرها من المدارس الحديثة العلمية بالاتفاق مع الخبراء الفرنسيين وعلى رأسهم كلوت بك، وكان هدف محمد على وابنه إبراهيم هو تعريب العلم وليس فرنسة الأمة، ولهذا فقد بدأ عمل هذه المدارس الحديثة الطبية والعسكرية والهندسية والزراعية وتم إحضار الأساتذة لها من فرنسا، وجرى ترتيب المحاضرات على أن يلقى الأستاذ محاضرته على طلابه وهم من صفوة طلاب الأزهر وأبناء المتمصرين من رعايا الدول العثمانية، وأن تكون المحاضرة بالفرنسية، ويتولى المترجمون نقل النص الشفاهى إلى العربية، ثم إعداد المذكرة المطلوبة باللغة العربية،

وبدأت الفكرة تؤتى ثمارها، وطمع محمد على أن يتطور بها درجة أخرى، فطلب من الأساتذة الأجانب أن يتعلموا اللغة العربية فى السنة الأولى من إقامتهم فى مصر ليتمكنوا من التدريس بها فيما بعد، وقد بدأ المحاضرون الفرنسيون بالفعل التحمس لهذا التوجه، ووصلت الإجادة ببعضهم مثل الدكتور بيرون، إلى أن يؤلف كتابين فى الطبيعة والكيمياء باللغة العربية.

واللافت للنظر والذى يستحق الإعجاب أنه إذا كان محمد على وهو ألبانى لا ينتمى لأب ولا لأم عربيين، و لم تكن العربية لغة طفولته ولا حديثه اليومى وإن كانت لغته الدينية ـ كان هو صاحب القرار السياسى بتوطين العلوم من خلال لغة الأمة وهى العربية فى مصر التى يحكمها، فإن صاحب التنظير التربوى لهذا القرار، وصاحب الإشراف على تنفيذه كان بعيدًا جدًّا عن العربية وهو الطبيب الفرنسى أنطونى برتلمى، الذى اشتهر باسم كلوت بك (١٧٩٣ ـ ١٨٦٨) والذى جاء إلى مصر طبيبًا خاصًّا لمحمد على سنة ١٨٢٥ وأسند إليه تأسيس مدرسة الطب فى أبى زعبل سنة ١٨٢٧، فكان رأيه أن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، ولا ينتج عنه توطين العلم ولا تعميم فائدته، وأن الحل العلمى لديه هو التعليم بالعربية.

وعندما أرسلت الحكومة الفرنسية البارون بواسلكيروم لمتابعة المشروع، لم يسترح لتحمس كلوت بك للغة العربية، فكتب إلى حكومته: «إن مدارس الطب والصيدلة والبيطرة والكيمياء مكونة تمامًا من عرب، والمسيو كلوت يحاول أن يعطى تلاميذه روحًا وطنية عربية، ولا أعرف هل يستحق التأنيب أو التشجيع»؟!

وظلت التجربة الوليدة فى تعريب العلوم تقاوم العقبات وتزدهر، حتى صدرت أول مجلة علمية طبية باللغة العربية وهى مجلة اليعسوب سنة ١٨٩٢، وفى العام نفسه صدرت مجلة المهندس أيضًا باللغة العربية، وبدأت التجربة المصرية فى التعريب تلفت نظر كثير من الدول الصاعدة فى ذلك الوقت ومن بينها اليابان، ولم تتراجع التجربة إلا بعد ضغط الاستعمار الإنجليزى حين تمكن من احتلال مصر سنة ١٨٨١، فكان من أول قراراته إلغاء تعليم الطب بالعربية وفرض تعليمه بالإنجليزية، بعد تجربة رائدة ناجحة زادت على نصف القرن، واستمرت فى مناطق أخرى فى العالم العربى مثل سوريا بنجاح حتى الآن.

وإذا كانت ضغوط الاستعمار الإنجليزى فى مصر قد أوقفت امتداد تجربة تعريب العلم وتوطين المعرفة، أو حاولت إيقاف ذلك، أو الامتداد به إلى ما هو أشد خطرًا، فقد تعددت محاولات ردود الفعل على هذه الخطوة، ومنها إنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ والمحاولات المتعددة لإنشاء مجمع لغوى أو مجامع لغوية على مستوى العالم العربى، والنشاط النسبى لبعض مؤسسات ومراكز التعريب، والدراسات والبحوث المتصلة بها، وتدريس العلوم باللغة العربية فى بعض الجامعات العربية، أو اللجوء إلى لغة وسيطة، هى مزيج من العامية والعربية والإنجليزية، وكتابة المذكرات والكتب بهذه اللغة أو بالشذرات التى تستقر فى الأذن والعقل منها.

ولكن تبقى الصورة فى مجملها بعيدة عن تحقيق هدف توطين المعرفة أو الربط بينها وبين اللغة القومية، وتبقى الصورة المضطربة

المشوشة واحدة من أهم عوامل إضعاف العلم واللغة معًا فى وطننا العربى.

يحدث هذا رغم أن القرن العشرين شهد، على مستوى العالم، كثيرًا من مظاهر التقدم فى الربط بين اللغات القومية وتوطين العلم، لدى شعوب كنا قد سبقناها فى خوض التجربة بقرون طويلة، ومع ذلك فقد استطاعت أن تعقد بين العلم ولغتها مواءمة رائعة، ومنها اللغة العبرية التى كانت فى عداد الموتى عندما بدأ محمد على تجربته فى تدريس الطب بالعربية سنة ١٨٢٧، قبل أكثر من خمسين عامًا من صيحة أليعازر بن يهودا: «لا حياة لأمة بدون لغة». وقد أصبحت اليوم كل فروع المعرفة العلمية الدقيقة تدرس من الألف إلى الياء باللغة العبرية التى تم إحياؤها من العدم، ومنها الشعوب التى لا تنتشر لغاتها إلا على مناطق محدودة من الأرض والناس، كما هو الشأن فى اللغة الكورية، التى لا وجود لها خارج شبه الجزيرة الكورية بملايينها السبعين، ومع ذلك فقد تم تطويعها لكل فروع المعرفة الدقيقة وتقنياتها، وحتى القوميات الصغيرة الناهضة فى شرق أوربا أو فى أرجاء آسيا، أصبحت لها لغاتها التى تطوعها للعلم، وتطوع العلم لها، حتى وإن بدا البون شاسعًا والعقبات كثيرة كما حدث مع اللغة الصينية بأبجديتها المعقدة العملاقة والتى تم فى النهاية تذليلها لشاشة الحاسب الآلى المحمول، حتى أصبح من الممكن القول بأنه لا توجد أمة متحضرة فى العالم تدرس العلوم بغير لغتها فيما عدا العالم العربى.

إن الزحف يمتد شيئًا فشيئًا على المستويين الرأسى والأفقى فى

مجال تفكيك الرابطة بين اللغة القومية وتوطين المعرفة بدرجاتها المختلفة، فعلى المستوى الرأسي، امتدت نزعة تغريب التعليم حتى وصلت إلى منابعه الأولى فى سن الطفولة، فمنذ شهور النطق الأولى يبدأ الطفل فى مدارس الحضانة تعلُّمَ الأرقام والكلمات البسيطة الأولى باللغة الإنجليزية، وتسعد الأم سعادة كبيرة عندما تعرض على زوارها مهارة طفلها وهو يعد حتى رقم العشرة بالإنجليزية دون تعثُّر، وتعتبر هذا مظهرًا اجتماعيًّا يلحقها أو يؤكد انتماءها إلى طبقة اجتماعية تختلف عن طبقة أولاد الفقراء، ويزداد الأمر مع تقدم سنوات التعليم حيث الرغبة الاجتماعية الطبقية المشتعلة فى إلحاق الأطفال بمدارس تقدم كل المواد باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وحيث التخطيط والتنظيم الحكومى لا يراعى المبدأ التربوى المتفق عليه فى كل مدارس العالم، إلا فى مدارسنا، وهو المبدأ الذى يحمى الطفولة من غزو لغة أجنبية قبل تمكن الأطفال من التفاعل مع لغتهم القومية، ومن هنا فإنه من غير المسموح به تعليم اللغات الأجنبية فى المراحل التعليمية المبكرة، فلا يتعلم الطفل الألمانى ولا الفرنسى ولا الأمريكى ولا الروسى ولا الإيرانى ولا الصينى ولا الكورى ولا اليابانى مبادئ القراءة والكتابة والرياضيات والعلوم بغير لغته القومية، كما نفعل، وإنما يؤجل لديه هذا النوع من التعليم حتى نهايات المرحلة الابتدائية، وهى المرحلة التى يكون فيها الطفل قد استوعب أن لغته القومية هى وسيلة أساسية من وسائل تكوين المعرفة لديه، قبل أن يضيف إليها وسائل أخرى من خلال تعلمه للغات أجنبية، بعد أن تكون بدايات حسّه اللغوى القومى المعرفى قد تشكلت فى أهم مرحلة من مراحل حياته.

ونحن بإصرارنا على أن نسير تمامًا فى الخط المعاكس لما اتفق عليه التربويون فى كل أرجاء الأرض، إنما نمهد لشعور الفصل بين المعرفة واللغة القومية عند الطفل، وهو الشعور الذى سوف يتحول إلى عداء بعد ذلك، عندما تقدم إليه تلك اللغة القومية على أنها «واجب ثقيل» ينبغى تحمله، دون أى ربط له بفائدة معرفية حقيقية.

إن من الطبيعى أن يؤثر ذلك الامتداد الرأسى لفترة بداية الاهتمام باللغات الأجنبية ـ على حساب اللغة القومية ـ على العلاقة الرئيسية بين اللغة وتوطين المعرفة والهوية، ونحن لا نود من خلال ذلك على الإطلاق، أن ندعو إلى إقصاء اللغات الأجنبية، ولا إلى عدم التعلم من تقنياتها أو التدرب على الاستفادة من بحوثها، ولكننا نفرق بين تعلم اللغة الأجنبية، والتعلم باللغة الأجنبية، وهى تفرقة تحتاج إليها أى أمة ترغب فى أن يكون لها كيان حضارى وشخصية قومية حتى يتاح لها أن تلحق بركب المعرفة الحديثة، إن لم يكن من موقع المشارك، فعلى الأقل من موقع المتفهم المستوعب، وهو ما لا تساعد السياسة اللغوية الحالية للتعليم، فى معظم أرجاء الوطن العربى، على تحقيقه.

إن الامتداد الأفقى لسياسة الفصل بين اللغة القومية وتوطين المعرفة لا يقل خطرًا عن الامتداد الرأسى لها، فبعد أن كان الحوار يدور فى فترات طويلة من القرن العشرين حول تدريس العلوم التطبيقية، كليًا أو جزئيًا، باللغات الأجنبية ـ قادنا الامتداد الأفقى إلى طرح المقترحات ووضع الخطط والمناهج لتدريس العلوم الإنسانية، كليًا أو جزئيًا، باللغات الأجنبية، وأصبحت الجامعات العربية التى

تنص مواثيق إنشائها ولوائحها الداخلية على أن اللغة العربية القومية هى لغتها الرسمية ـ أصبحت هذه الجامعات تسمح للغات الأجنبية أن تزحف شيئًا فشيئًا على فروع الدراسات الإنسانية، وكان من الطبيعى أن يكون البدء بأقسام اللغات الأجنبية، التى يجرى فيها التدريس وإعداد الكتب والرسائل العلمية باللغات التى يتم التخصص فيها، ولكننا حين نقارن سلوكنا فى هذا المجال بسلوك الجامعات الأجنبية العريقة المعتزة بلغاتها القومية، سوف نجد فرقًا واضحًا فى التخطيط لأقسام اللغات الأجنبية بها، فالذى يلتحق بقسم اللغة العربية مثلاً فى إحدى الجامعات الفرنسية أو الإسبانية أو الإنجليزية أو الألمانية، يتابع محاضراته باللغة القومية للجامعة التى ينتمى إليها، ويكتب رسالته العلمية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه باللغة القومية لا بلغة التخصص الذى تدور حوله الرسالة، وكذلك تجرى المناقشة باللغة القومية، ولا ينفى هذا أبدًا اهتمام الأساتذة هناك باللغات الأجنبية وتعمقهم فيها، ولكنه يحفظ للغة القومية مكانتها وهيبتها ويساعد فى توسيع معنى الفائدة من بحوث تخصصية دقيقة، تجريها شريحة من أبناء المجتمع فى فرع دقيق من فروع المعرفة، سعيًا إلى ترسيخ جذور الفكرة العامة فى توطين العلم، ولو سعينا نحن لتطبيق شىء من هذا القبيل فى أقسام اللغات الأجنبية بجامعاتنا، لأمكن أن نستفيد من كثير من الخبرات التخصصية فى التكوين المعرفى العام، وأن نساعد هذه الكوادر على الارتفاع بمستوى معرفتها باللغة القومية.. دون أن يؤثر ذلك على تعمقها المطلوب فى تخصصاتها فى اللغات الأجنبية.

أما الامتداد الأفقى الأوسع مدى، والذى ينبغى أن ينظر إليه بمزيد من التريث وتحليل الآثار الإيجابية والسلبية، فهو سريان تعليم التخصصات الإنسانية باللغات الأجنبية، سريانًا يتدرج من الانتقاء إلى الشمول، مثل دراسة الحقوق باللغة الفرنسية ودراسة التجارة باللغة الإنجليزية، أو إنشاء قسم فى الاقتصاد والعلوم السياسية يدرس فقط بالفرنسية أو الإنجليزية، وهناك تخصصات مرشحة لدخول هذا المجال شيئًا فشيئًا، سواء كان ذلك داخل الجامعات القومية الحكومية أو الخاصة أو داخل الجامعات الأجنبية التى بدأت تنتشر وتتنافس فى أرجاء الوطن العربى، فى ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ليست فى صالح التيار القومى واللغة القومية.

ولابد أن نتوقف قليلاً أمام بعض الآثار السلبية الواقعة أو المحتملة من وراء سريان موجة التغريب فى التعليم بمستوياته المختلفة وبتخصصاته التجريبية أو الإنسانية، وهى سلبيات دارت حولها كثير من الدراسات والبحوث والإحصائيات، وتنبهت حتى المؤسسات الدولية إلى جوانب من خطورتها على الصحة العامة وعلى الاقتصاد الوطنى، وعلى تكوين الطبقات المتوسطة الحرفية والفنية والثقافية، فضلاً عن ضررها البالغ على وجود الأمة الحضارى، كما يقول الشاعر الصقلى أجنازيا بوتينا.

لقد أوصت منظمة الصحة العالمية، وهى تراجع الحالة الصحية فى العالم العربى، «باستخدام اللغة القومية فى تعليم الطب»، بعد ملاحظتها أن العالم العربى متفرد فى هذه الناحية، حيث يتعلم أطباؤه بلغة غير لغة المرضى والممرضات، فضلاً عن استعانته فى كثير

من الأحايين بأطباء لا يعرفون لغة المرضى، وينتج عن ذلك مخاطر كبيرة ناتجة من رداءة الاتصال اللغوى بين الطبيب ومساعده ومريضه، على مستوى السماع والتشخيص من ناحية، ووصف العلاج وإعطاء التعليمات من ناحية أخرى، وكم من مرضى صاغوا شكاواهم فى لغة لا يفهمها الطبيب، وكم من نصائح وتعليمات لم يفهمها المريض من طبيبه، بل ولم تفهمها الممرضة القائمة على المتابعة نتيجة الخلل اللغوى بين اللغة التى تم التعلم بها واللغة التى يتم التعامل بها، ونفس الأمر ينطبق على الطبقة المتوسطة فى عالم الهندسة والصناعات والكيماويات، حيث تظل الفجوة بين المهندس الذى تحكمه تصورات لغوية معينة والفنى الذى يشكل واسطة بين تصورات المهندس وتنفيذات العمال، الذين لا يملكون بالتأكيد المقدرة اللغوية الأجنبية التى يملكها المهندس، وغالبًا ما يشكل القصور النسبى – ولو كان ضئيلاً – فى التواصل اللغوى الفنى بين هذه الشرائح، قصورًا فى جودة المنتج وسير عمل الإنتاج، ووضع منتجات الأمة واقتصادها على خريطة الإنتاج العالمى.

وقد يؤدى الإصرار على التمسك الحرفى بفكرة اللغات الأجنبية كوسيلة مُثلى فى تعليم بعض فروع المعرفة، إلى مفارقات مضحكة مبكية، فقد عاصرت بعض مراحل تجربة الجامعات الخليجية فى التحديث، والهرولة نحو اللحاق الشكلى بمناهج وطرق تدريس الجامعات الغربية، ومعرفة كثير من الغربيين بهذه الرغبة الملحة، وهى معرفة لا يتردد بعضهم فى استغلالها لتمرير عناصر غير مؤهلة بالقدر الكافى، أو ليست ذات مستوى رفيع فى جامعاتها الأصلية،

أو تمرير مناهج ثبت عدم صلاحية تطبيقها لديهم ليتم تصديرها إلى المتلهفين، وفى هذا المجال تسمح كثير من الأوراق «غير الدقيقة» للكفاءات والخبرات الأجنبية، باحتلال أصحابها لمواقع غير مؤهلين لها، وإعطائهم الفرصة لتشكيل عقليات أجيالنا الحاضرة والقادمة، عل النحو الذى يريدون، ولقد اكتشفت إحدى هذه الجامعات بعد فترة طويلة أن الخبير الذى استدعته من بلاد الغرب ليدير قسم اللغة الإنجليزية بها، ويتقاضى راتبًا ضخمًا، اكتشفت بعد عدة سنوات أن هذا الخبير لم يكن إلا مغامرًا من إحدى الدول الغربية، كان يعمل سائقًا لإحدى الشاحنات، وعلى صلة بأخبار طموحات بعض الجامعات العربية لتغريب كل شيء فيها، و لم يكن حاصلاً على أى مؤهل فى اللغات وتدريسها، سوى أن «الإنجليزية» هى لغته الأم ولغته القومية!! ولقد تعجب عندما كشفت الحقائق أمامه أن يستهين هؤلاء العرب بقدراته فى تعليمهم الإنجليزية التى يهرولون إليها لاستكمال مظاهر التحديث!

ولقد ناقشت مرة أحد المسئولين فى جامعة خليجية عربية فى رغبته الملحة فى أن يجعل تخصص «إعداد مدرسى العلوم» يقدم باللغة الإنجليزية للطالب فى كل سنوات دراسته الجامعية، وأوضحت له أنه على الرغم من الصعوبة البالغة للتحصيل من خلال لغة أجنبية لم يتعود الطالب على الدراسة الدقيقة بها، من قبل، وعلى الرغم من أنه فى هذه الحالة سيضطر إلى إنفاق أكثر من ثلاثة أرباع وقته للسيطرة على التحصيل اللغوى لا على المادة العلمية، التى قد يكتفى منها فى نهاية المطاف ببعض القشور، على الرغم من هذا

كله، فإن الحاجة العملية لإجبار الطالب على المرور بهذا الطريق الصعب غير متوافرة، ذلك أن هذا الطالب بكل بساطة قادم من مدرسة ثانوية درس فيها العلوم باللغة العربية، وسيعود غالبًا لمدرسة ثانوية مثلها، إن لم تك هي نفسها، لتدريس العلوم باللغة العربية، فلماذا ينفق من عمره أربع أو خمس سنوات ليرهق نفسه بدراستها بلغة أخرى فتفوت عليه فرصة تعميق معرفته بالمادة، وتوسيع أفقه فيها، والاطلاع على مراجع كثيرة بلغات أجنبية أخرى فيها، وإجراء تجارب بحثية يتخرج بعدها الطالب متماسك الشخصية، غير مشتت الثقافة، قادرًا على العطاء الحقيقي والإسهام في توطين العلم.

وأوضحت لذلك المسئول أن مجرد الدراسة الجامعية بالإنجليزية لا يعطي للطالب بالضرورة فرصة أوسع للتعمق في السيطرة على مادته العلمية، بل ربما كانت الدراسة باللغة القومية، هي التي تمنحه هذه الفرصة، وضربت مثلاً بالعالم المصري الدكتور أحمد زويل، الذي تلقى تعليمه منذ ولد سنة ١٩٤٦ في شمال الدلتا، باللغة العربية، حيث مر بمدرسة دمنهور الابتدائية، ودسوق الثانوية، قبل أن يلتحق بقسم الكيمياء بكلية العلوم جامعة الإسكندرية، ويحصل منها على درجة البكالريوس سنة ١٩٦٧، وعلى درجة الماجستير كذلك، قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة لإعداد رسالته للدكتوراه في بنسلفانيا، ومع أنه لم يمر في تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي بمدارس اللغات، و لم يلتحق بالجامعات الأجنبية، فإن ذلك لم يمنعه ــ بل ربما كان ذلك هو الذي ساعده ــ من الوصول إلى أرفع

الدرجات والجوائز على مستوى العالم فى تخصصه، فنال درجة الأستاذية فى كاليفورنيا سنة ١٩٨٢ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، ونال مقعد لينوس بولينج فى الكيمياء سنة ١٩٩٠، وحصل على جائزة الملك فيصل العالمية، ثم توج جهوده بحصوله على جائزة نوبل فى الكيمياء سنة ١٩٩٩، عندما اكتشف أصغر وحدة قياس عرفها تاريخ العلم، وهى وحدة «الفيمتوثانية» ، وكل هذه الإنجازات تمت على يد رجل درس العلوم التطبيقية فى بلاده باللغة العربية، وقدم وحده أعظم دليل على أن الذين ينادون ـ على مدى أكثر من قرن بربط التقدم فى مجال العلوم ـ بهجر اللغة القومية، والتعلم بغيرها، إنما هم مخطئون.

إن بعض التجارب الواقعية فى الدول العربية التى حاولت أن تذهب فى شوط التعليم الأجنبى العام إلى مدى بعيد، تحت تأثير ظروف تاريخية، أو استجابة لتصورات كانت ترى تحقيق الطموح من خلال انتهاج ذلك الطريق، هذه التجارب، يمكن أن تعطينا مؤشرات نتائجها أدلة تصطدم مع الظن الشائع بأن «فرنجة» التعليم يمكن أن تكون عاملاً مساعدًا على الانتعاش الاقتصادى، فقد أشارت دراسة نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة للأستاذ عبد الله كنون إلى التجربة التى خاضتها المغرب على طريق فرنسة التعليم جزئيًا، واستقدمت مدرسين فرنسيين لتحقيق هذا الغرض من خلال تخصيص مدارس للتعليم الفرنسى، وحاولت بعد فترة تعميم التجربة، «فاستقدمت الحكومة المغربية لجنة من خبراء البنك

الـدولى لـلإنشـاء والـتـعـمير، بقصـد الاسـتشـارة، فكـان رأيـهـا أن ازدواجية التعليم هو مما يستنزف مالية المغرب.. فضلاً عن كونها السبب فى هبوط مستوى التعليم، وأوصت اللجنة، باعتماد لغة البلاد، اللغة الأساسية للتعليم». وتلك التجربة التى تزداد محاكاتها فى بعض البلاد العربية، من خلال تخصيص المدارس الأجنبية، المرتفعة التكاليف، لأبناء الطبقات الاجتماعية القادرة، والامتداد بهذه العزلة من خلال انتشار الجامعات الأجنبية، أو الأقسام الأجنية فى الجامعات القومية من شأنه أن يؤدى شيئًا فشيئًا إلى تكريس نظام طبقى اجتماعى حاد فى التعليم، تزداد مظاهره يومًا بعد يوم، ويكاد يعود بالعالم العربى إلى النظم الاجتماعية فى عهود الاستعمار والإقطاع، وهى النظم التى يتبرأ منها القائمون على شئون العالم العربى، على الأقل من الناحية النظرية.

ومن الثابت الآن فى دراسات التنمية أن التخبط فى تشكيل العناصر البشرية التى يعتمد عليها اقتصاد الأمة ومستقبلها تخبطًا لغويًا وثقافيًا، يعود مردوده بالنقص والخسارة على مجمل إنتاج الأمة، وقد أشار التقرير الهام الصادر عن المجالس القومية المتخصصة فى صيف عام ٢٠٠٤ إلى هذه القضية الحيوية عندما قال: «إن قضية التغريب لم تعد نابعة من الحمية القومية أو المحافظة على الهوية الثقافية فحسب، بل صارت ضرورة لا غنى عنها لصقل أدوات التفكير وتنمية القدرات الذهنية والملكات الإبداعية، وقد أشار تقرير التنمية الإنسانية فى الوطن العربى، الصادر فى نهاية عام ٢٠٠٣ إلى أن طريق التنمية لا يتحقق عبر الثقافات الوافدة،

كما لا يؤتى ثماره من خلال لغات الآخرين، وإن كان يَثْرَى من تجارب الآخرين بعد ترجمتها إلى اللغة الأم».

وتلك شهادة بالغة الأهمية من أناس متخصصين فى مجال التنمية الإنسانية وليس فى مجال الصحة اللغوية.

إن الأمر يزداد غرابة حين تنزل الدراسات الميدانية المتخصصة إلى ميدان التدريس لطلابنا العرب باللغات الأجنبية، لتحاول الإجابة عن تساؤلات رئيسية مثل درجة التحصيل العلمى باللغة الأجنبية، ومدى مساعدة استعمال هذه اللغة على الوصول إلى درجة من الفهم تسمح للطلاب بالحوار والمناقشة والرغبة فى مزيد من المعرفة، وأمامنا مجموعة من نتائج الدراسات المهمة لتجارب التغريب فى الجامعات العربية، وهى للدكتور نوفل الأحمد والدكتور سعيد حارب، وهى تدل إلى أى مدى، تتحقق الفائدة أو لا تتحقق من التدريس باللغات الأجنبية ، فقد أجريت تجربة فى الجامعة الأمريكية فى أواسط الستينيات، وجرى تشكيل مجموعتين من الطلاب، إحداهما تلقت دروسًا فى علم من العلوم باللغة الإنجليزية، والأخرى باللغة العربية، ثم قدمت المجموعتان اختبارًا فى تلك المادة، فوجد أن المجموعة الأولى استوعبت ٦٠٪ من المادة المدروسة، فى حين أن المجموعة الثانية استوعبت ٧٦٪ من المادة نفسها، وفى التسعينيات أجريت تجربة مماثلة على طلاب الجامعات الليبية، بعد تدريس مادة لهم باللغة الإنجليزية وإعادة تدريسها باللغة العربية، فكانت النتيجة أن ٨٨٪ منهم أفادوا بأن حجم المعلومات أثناء المحاضرة بالعربية ازداد عما كان عليه بالإنجليزية، و٨٥٪ أفادوا

بزيادة الاستيعاب والفهم و ٨٠٪ أفادوا بزيادة مشاركة الطلاب فى الدرس والمناقشة، وفى تجربة لاحقة فى جامعة الإمارات أفاد ٨٣,٨٪ من الأساتذة أن الطلبة أقدر على استيعاب المادة العلمية باللغة العربية « التعريب والتنمية اللغوية: ممدوح خسارة».

أما التقرير الجيد المحكم، الذى أصدرته المجالس القومية المتخصصة فى صيف ٢٠٠٤، بعنوان: «تعريب لغة التعليم العالى» فقد أشار بحيدة وشجاعة إلى الوضع الحالى لما يسمونه التعليم باللغة الإنجليزية فى الجامعات، حيث يثبت التقرير أن الكثرة من الطلاب الذين يتلقون هذا النوع من الدراسة، بعيدون ــ فى معظم الأحوال ــ عن التمكن من اللغة الإنجليزية ذاتها، ولهذا يضطر المحاضر إلى صرف جزء كبير من وقت المحاضرة فى تفسير ألفاظ وتراكيب إنجليزية عادية، وإلى اللجوء بالشرح والتعليق باللغة العربية أو بالأحرى العامية، مضمنًا كلامه عددًا من الألفاظ المفككة والجمل البتراء باللغة الإنجليزية، ومتجنبًا على قدر الإمكان الألفاظ والعبارات الدقيقة، وخلال المحاضرة قد يحاول الطالب تسجيل الكلمات التى يتمكن من تسجيلها، وقد يجدها فى النهاية مفتقدة للروابط اللغوية الضرورية، فيحفظها، ويصبها فى أوراق الإجابة، بطريقة قد يصعب فهمها إلا لمن كتبها أو من ألقى المحاضرة إذا استطاع أن يستعيد منها ملامح ما يريد الطالب أن يقوله.

ويشير التقرير إلى واقعة حقيقية حدثت فى إحدى الجامعات العربية التى يؤدى طلابها امتحان المواد العلمية فى بكالريوس العلوم باللغة الإنجليزية، وقد أحضرت أستاذًا إنجليزيًّا، لينظر فى أوراق

إجابة الطلاب، ويكتب انطباعه عن المضامين العلمية التى تحملها لغتهم، فكتب الأستاذ فى تقريره: «إننى لم أستطع أن أعرف لما كتبه هؤلاء الطلاب، رأسًا من ذَنَب(!)». ولكنه أضاف بجملة فيها مجاملة، لكنها لا تخلو من مغزى قائلاً: «وما أظن أننى سوف أكون أكثر توفيقًا منهم لو طلب إلىّ أن أكتب باللغة العربية». وكأنه يريد أن يقول: ماذا تصنعون بأبنائكم، وأنتم ترغبون فى أن يكون لديهم تكوين علمى مناسب فى مواد تخصصهم.

وإذا كان هذا شأن الجامعات التى تثق فى نفسها، وتضع برامجها وتختار أساتذتها، على أساس إطلاع الخبراء الأجانب من الأساتذة أبناءِ اللغة التى يتم التدريس بها، على أوراق إجابات الطلاب، وتسعى للحصول من ثم على شهادات تزكية وخبرة، فما بالك بالجامعات الأخرى — وهى الكثرة الغالبة — التى تتكتم على أمورها، ومستويات التدريس بها، ولا تقبل التدخل الخارجى فى شئونها الخاصة، وتكتفى بأن يظهر طلابها فى حفلات التخرج بقبعات مميزة، تماثل قبعات الجامعات الإنجليزية أو الأمريكية، وهكذا تتساوى الرءوس بصرف النظر عما بداخلها.

وفى مقابل بعض سلبيات «التغريب» هناك إيجابيات كثيرة لمحاولات «التعريب» فى مجال الدراسات العلمية، ولسنا نعنى هنا فقط الإيجابيات بالمعنى الافتراضى أو المعنوى أو من خلال توقع النتائج التى تعود على قضية الهوية والانتماء الحضارى، وإنما نعنى الإيجابيات الملموسة التى ولدتها تجربة عربية صامدة فى تدريس الطب باللغة العربية، وهى التجربة السورية، التى ينفى واقع

خريجيها، ونجاحهم المهنى الرائع فى أرجاء العالم، كثيرًا من التهم والعراقيل التى يضعها أنصار التغريب فى وجه دعاة التعريب، فالمهاجرون من الأطباء السوريين ممن تعلموا الطب بالعربية، يمثلون ٤٠٪ من نحو عشرة آلاف طبيب عربى اختاروا الهجرة إلى أمريكا، وكثيرون منهم يعدون فى المراكز المرموقة فى عالم الطب الأمريكى، دون أن تشكل دراستهم للطب باللغة العربية حجر عثرة فى طريق تطوير أبحاثهم بالإنجليزية وإدارة الأقسام الطبية بالمستشفيات والجامعات الأمريكية الكبرى.

ولقد نشرت جريدة الأهرام القاهرية فى مطلع يناير سنة ٢٠٠٤، مقالاً لأحد هؤلاء الأطباء النابهين السوريين فى أمريكا، وهو الدكتور وائل خورى، يناقش فيه آراء أحد الأطباء من مناهضى التعريب فى مقال كان قد نشره بنفس الصحيفة فى أواخر سنة ٢٠٠٣، ورأى فيه أن محاولة تعريب الطب هى نكبة وكارثة، ويقول الدكتور خورى إنه فوجئ بهذه الأوصاف الشديدة لمحاولة دراسة الطب باللغة القومية، ويقول إن تجربته الشخصية، وتجربة الآلاف من زملائه الذين درسوا الطب بالعربية وتفوقوا فى مجالات عملهم فى الخارج تؤكد عكس ذلك، وأنه نجح فى أن يكون رئيسًا لقسم الأمراض القلبية فى ثلاث من أكبر مستشفيات ولاية أوهايو، ثم كان مؤسس الجمعية الطبية العربية فى كليفلاند، ثم رئيسًا للجمعية الطبية العربية فى أمريكا، وأشار إلى الحقائق المعروفة من التفوق الكبير الذى يحظى به خريجو كليات الطب التى تدرس باللغة العربية، وأنهم حتى فى امتحان المعادلة الأمريكية يحظون

بمكانة مرموقة، ربما بسبب ما أتاحته لهم دراسة الطب باللغة القومية، من تعمق فى الموضوعات المدروسة وسيطرة عليها، دون أن يمنعهم ذلك بالطبع من الاستعانة بالمراجع الأجنبية، وقراءة وإعداد الأبحاث بها، والسيطرة على مصطلحاتها.

إن الأمر فى نهاية المطاف يظهر أننا فى مرحلة فاصلة من تاريخنا العلمى والثقافى والحضارى، وأن بعضًا من حقائق هذه المرحلة ينبغى أن يكون شديد الوضوح فى أذهاننا.

فنحن فى عصر ثورة المعرفة، وهى ثورة تتنافس فيها كل القوى المتقدمة والمتوسطة، والتى تحاول اللحاق بالركب، لتوطين جانب من المعرفة بين أبنائها، يساعد على نموهم ويساعدون على نموه، وتزداد الحاجة إلى هذه الخطوات، مع ازدياد خطوات الاحتكار لشرائح معينة من المعرفة، تسعى الدول المتقدمة لكى تفرض عليه ستارًا خاصًا، ولكى تمحوه إذا استطاعت من ميراث بعض الشعوب والحضارات التى تصنفها فى صف الأعداء، وليست مطاردة الأمريكان، لمحاولة التقدم العلمى الكورى، والباكستانى، والإيرانى، إلا نموذجًا لذلك، وليست التعليمات الصادرة للجامعات الغربية، بحجب التخصصات الدقيقة عن الطلاب العرب والمسلمين إلا نموذجًا ثانيًا، وليست محاولة التصفية الجسدية للطاقات العلمية فى العراق مثلاً قبل الحرب وأثناءها إلا سلوكًا تطبيقيًا مؤكدًا للنوايا المُعلنة ـ هذه المعرفة لا يمكن أن تعرف طريقها إلى التوطين والاستقرار والنمو إلا من خلال اللغة القومية، التى تتبادل الانتعاش مع العلم فتقوى به ويقوى بها، وستبقى اللغة

الأجنبية، رغم أهميتها وضرورتها الحيوية، ثوبًا مستعارًا، إذا أعطى المعرفة الضرورية أو القشرية، فلن يقدم المعرفة العميقة ولا المتوطنة.

اللجوء إلى اللغة القومية، وسيلة لاكتساب المعرفة ونشرها، سوف يساعد على سد الفجوة القائمة بين كبار المتخصصين، ومتوسطى الفنيين، وصغار العاملين فى المجال الواحد، ويسمح بتمرير التصور المشترك فى سهولة، ومن ثم إلى جودة المنتج وارتفاع مستوى التنمية البشرية والمادية.

فى عصر شبكات المعلومات المنتشرة على أجهزة الحاسب الآلى، والتى بدأ الكثير منها يعبر باللغة القومية، تزداد الحاجة إلى إشباع الفضول المعرفى العام، وتتراجع النزعة فى انغلاق كل فرع على صفوة متخصصيه يتبادلون بينهم المعلومات الخاصة، بلغة خاصة، وفى هذا الإطار تبرز اللغة القومية باعتبارها وسيلة ضرورية لتعميم الثقافة الخاصة فى فروع العلم والمعرفة المختلفة، ولإثراء هذه الثقافة فى الوقت ذاته من خلال الحوار والمداخلات، وللمساعدة فى تكوين مجموعة من «قواعد البيانات» يأخذ بها العلم طريقه نحو التوطين الحقيقى.

تقريب الفجوة بين لغات التدريس، فى المدارس الحكومية، المدنية والدينية، والمعاهد الفنية، والمدارس الخاصة الأجنبية، والجامعات القومية، والجامعات الخاصة، لا يتم إلا من خلال اعتماد اللغة القومية قاسمًا مشتركًا، قد تتفاوت درجات الالتزام بسبب الاعتماد عليه من مكان لآخر، تفاوتًا ضئيلاً، ولكنه يبقى الحافظ الرئيسى للهوية القومية، وللسلام الاجتماعى على المدى البعيد،

وقد بدأ التشقق يتسرب إلى بعض جوانبه، من خلال المسألة اللغوية، التي قد تكون لها نتائج أخطر مما نتصور.

ليس تحقيق هدف الربط بين اللغة القومية وتوطين العلم بالأمر المستحيل، ولا حتى بالأمر الصعب، ولكنه يحتاج بالقطع إلى عزيمة اتخاذ القرار، ومتابعة التنفيذ بعد تحديد الوسائل، والإدراك إدراكًا واعيًا، بأننا على مفترق طرق، بسبب قضية اللغة، بين أن نكون أو لا نكون.

مخاطر الجمود في تعليم اللغة

المشكلة الحقيقية التى تواجهها اللغة العربية اليوم، لا تكمن فى جمودها هى، وعجز مفرداتها وتراكيبها عن الاستجابة لمتطلبات الحياة المتطورة، فلديها من الإمكانيات الظاهرة والكامنة، ما يؤهلها لأن تكون لغة الحاضر ولغة المستقبل أيضًا.

ولكن المشكلة الحقيقية التى تواجه هذه اللغة تكمن فى جمود التقعيد لها، ووقوف القائمين على أمر قواعدها النحوية والصرفية والبلاغية والمعجمية عند النقطة التى انتهى إليها أسلافهم العظام منذ أكثر من ألف عام وعدم الإدراك الكافى بأن الرصيد الضخم من القواعد الذى أسسه هؤلاء الأسلاف، يحتوى دون شك على جانب أساسى ثابت لكنه يحتوى كذلك على جوانب فرعية كثيرة متغيرة، وأن هذا التغير ـ الذى حدث فى اللغة ذاتها ـ كان يتطلب ضرورة التحرك والتطوير فى اتجاهين:

(ا) اتجاه الإغفال النسبى لكثير من القواعد الفرعية التى لم تعد تستخدمها العربية المعاصرة، والتى تثقل فى الواقع كاهل المتعلمين وتنفرهم من تعلم اللغة والإقبال عليها.

(ب) اتجاه اكتشاف المستجدات فى القواعد، وإبداء مزيد من المرونة، يحول دون وصف كل تطور بأنه خطأ وخروج على القواعد، وإدراج ما يستقر عليه الرأى من هذه القواعد المكتشفة فى مناهج تعليم اللغة.

ولاشك أن هنالك جهودًا طيبة بذلت خلال العقود الأخيرة على هذا الطريق أو ذاك، لكن الذى لاشك فيه كذلك، أننا مازلنا محتاجين إلى تغيير جذرى فى طريقة النظر إلى التطور اللغوى واستخلاص القواعد الضرورية لهذا التطور، وإعادة تقديم اللغة العربية لمتعلميها سواء كانوا من أبنائها أو من غير أبنائها، وفقًا لتصورات جديدة، مع توسيع دائرة الوسائل التى يستعان بها فى البحث لإرساء هذه التصورات الجديدة، أو فى التعليم لتقريب اللغة من خلالها إلى عقول متعلميها وقلوبهم.

وهذه التصورات الجديدة ينبغى أن تكون موضع نقاش حر وواسع لا يقتصر حق إبداء الرأى فيه على علماء النحو والصرف والبلاغة وحدهم، ولا يملك الكلمة الحاسمة فيه المهتمون بقضايا التراث وعلوم الدين، دون غيرهم، وإنما يتاح حق الحوار فيه للمتخصصين فى فروع العلوم الإنسانية المختلفة وللمثقف العام ورجال الصحافة والإعلام، وعلماء البرمجيات والاتصالات وحتى مصممى لعب الأطفال، وكل من له اتصال باللغة وقضاياها، شريطة أن يدرك المشارك فى الحوار أن عليه أن يكون مؤهلاً للقيام بدوره فى الحوار حول قضية ذات أبعاد متشعبة، تمس الماضى والحاضر والمستقبل وتتصل بالهوية القومية وبالموروث العقائدى، وأنها

إضافة إلى هذا كله، قضية تتصل بفرع هام من فروع المعرفة شأنه شأن الطب والهندسة والاقتصاد له أسسه وتوازناته ومبادئه، وأن على من يبدى رأيًا جديدًا، مهما بدا له أنه محقق للخير والصالح العام، عليه أن يكون مستعدًّا لسماع وجهة النظر المقابلة والحوار معها، وتعديل تصوراته وفقا لذلك.

ويمكن أن نقترح مجموعة من المنطلقات التى يمكن أن ينطلق منها الحوار بهدف كسر الجمود، فى مجال تقعيد اللغة، وتقديمها إلى عقول المتعلمين وقلوبهم، دون أن يعنى ذلك محاولة كسر اللغة نفسها، أو المساس بتراثها أو محاولة فرض تطور عليها، فالتطور لايفرض وإنما يرصد، وهذه المنطلقات جميعًا يجمعها مبدأ واحد هو محاولة الفصل بين المستويات فى تعليم اللغة العربية، وهو موضوع الفصل التالى من هذا الكتاب.

الفصل بين المستويات

من الأخطاء الجوهرية التى نقع فيها ونحن نقدم اللغة العربية للأجيال المعاصرة، أننا نقدم - من ناحية - هذه اللغة باعتبارها كتلة واحدة أو مستوى واحدًا من الظواهر اللغوية تمتد امتدادًا رأسيًّا أكثر من خمسة عشر قرنًا، ومن ناحية ثانية، نعامل الذين يتعلمونها على أنهم كتلة واحدة أو مستوى واحد من المتعلمين يمتد امتدادًا أفقيًّا من الفلاح الفصيح والعامل الفنى، إلى المحاسب والمهندس والطبيب، والمحامى والصحفى والأديب، وصولاً إلى العالم فى النحو والمتخصص فى اللغة، وذلك كله خلط يسىء إلى اللغة وإلى متعلمها على السواء.

وينبغى لنا أن نتأمل فى إمكانية فصل المستوى الرأسى إلى درجات متعددة، وفصل المستوى الأفقى كذلك إلى درجات متعددة، واختيار المادة اللغوية الملائمة لكل مستوى، ورسم منهج متدرج يقدم القدر الكافى لكل مستوى، ويحاول ألا يزيد عليه، وألا يتسامح فى الانتقاص منه، لكننا قبل أن نتفرع بهذه المستويات رأسيًّا وأفقيًّا، نود أن نشير إلى قضية هامّة وحساسة تتصل بنوع العلاقة بين اللغة العربية والعاميات المتفرعة عنها، وهل تدخل فى

دائرة علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة فى إطار لغة واحدة لها نظام واحد، أم تدخل فى إطار علاقة نظامين لغويين مختلفين؟

وهذه قضية تواجه كل عام ملايين الأطفال العرب الذين يبدأون تعليمهم ويتلقون، فيما يتلقون، دروسهم الأولى فى تعلم اللغة العربية إلى جانب دروس التاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم واللغات الأجنبية، وسوف يركز كل منهم فى مرحلة تالية، على فرع من فروع هذه التخصصات، لكنه محتاج فى الوقت ذاته لأن يلم بأساسيات التخصصات الأخرى ومن بينها اللغة العربية واللغات الأجنبية، التى نبدأ تعليمها للطالب غالبًا من نقطة الصفر، لكننا قبل أن نفرع هؤلاء التلاميذ إلى مستويات ينبغى أن نتساءل فيما يتصل بتعليمهم للعربية على نحو خاص: هل نحن نقدم لهم لغة أجنبية شأنها فى ذلك شأن الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، ومن ثم نتوقع أن تكون مفرداتها وقواعد تركيبها، ونحوها وصرفها جديدة كل الجدة عليهم، أم أننا فى واقع الأمر، نقدم لهم مستوى خاصًا من لغة الكتابة، فى لغة يعرفون أساسيات لغة الكلام فيها؟

إن الإجابة عن هذا السؤال شديدة الأهمية، ونحن نفتح هذا الحوار الموسع، لأنها تحدد فى الواقع نوع العلاقة بين اللغة العربية وعامياتها المتفرعة عنها، وهل هى علاقة لغات أو لغة ولهجات، ثم هل هى علاقة تكامل أو تضاد؟

ومن اللافت للنظر أن نجد أن الطرفين المختلفين من أصحاب نظرة الجمود والتشدد فى المحافظة على اللغة العربية، وأصحاب نظرة الدعوة إلى التسامح والتجديد الجذرى، يتفقون فى حرصهم

على توسيع الهوة بين العربية وعامياتها، فيرى الفريق الأول أن العامية شديدة الخطر على العربية، وأنه ينبغي تجنبها بل ومحاربتها.

ويثير أنصار الرأى المتشدد أدلة من شأنها أن توقع فى الحرج محاوريهم، حين يجرى الحديث عن التراث الدينى والخطر الذى تمثله العامية عليه، وينتهى هؤلاء إلى ضرورة المحافظة على «نقاء» العربية، وتنقيتها من شوائب العامية.

وفى المقابل فإن الذين يفتحون باب التجديد اللغوى على مصاريعه يرون أن العاميات، هى لغة الحياة اليومية، وأنها تمارس التطور الطبيعى، الذى لابد أن يؤدى بها إلى الاستقلال، كما حدث تاريخيًّا بين اللاتينية وعامياتها التى شكلت فيما بعد اللغات الأوروبية الرئيسية مثل الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية، ويرى هؤلاء أننا عندما نكتب بالعربية ونتكلم بالعامية، فإننا نصاب بلون من الشيزوفرانيا اللغوية، ولكى نتجنب ذلك فى رأيهم فإنه ينبغى الانتقال إلى العاميات للكتابة والتفكير بها فى وقت واحد، واللافت للنظر أن معظم هؤلاء الذين يدعون إلى هجر الكتابة العربية لصالح «الكتابة العامية» يعبرون عن أفكارهم تلك بلغة عربية صحيحة غالبًا، ولا يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم أو يدافعوا عنها، باللغة العامية، والتجارب القليلة التى حدثت لكتابة فكرة ما باللغة العامية، لم تحقق كثيرًا من النجاح مثلما حدث لكتاب مرموقين مثل لويس عوض ومصطفى صفوان وغيرهما ممن ظلت كتاباتهم بالعامية، أقل ما كتبوه تألقًا ونجاحًا رغم وجود أفكار جيدة كثيرة بها.

والواقع أن كلا الطرفين يلوى الحقائق بالطريقة التى تساند رأيه،

فلا العاميات هى نقيض العربية وعدوها، ولا هى فى الوقت ذاته بديلها ووريثها وإنما العلاقة بين كثير من العاميات العربية المعاصرة ومن بينها العامية المصرية، وبين اللغة العربية الفصحى، هى علاقة تندرج فى تفاوت لغة الكتابة عن لغة الكلام والحياة اليومية، السائدة فى معظم اللغات الحية، باتساع كمى - لا نوعى - فى درجة الفرق حسب طبيعة التطور التاريخى التى تطلبت الحرص على عدم اتساع الهوة بين المستويين، ومن هنا فإن الذى يمكن ملاحظته بسهولة هو التطابق شبه التام بين الهيكل اللغوى للفصحى والعامية، من حيث المفردات الرئيسية، وشبكة الضمائر، وحروف الاتصال، وظروف الزمان والمكان، وأركان الجملة الفعلية أو الاسمية، والبنية الخبرية أو الإنشائية، وصيغ التصغير والتكبير، والتذكير والتأنيث، والإفراد والتثنية والجمع، والنفى والنهى والإثبات، والتعبير عن الماضى والحاضر والمستقبل، وغيرها من أركان البناء اللغوى، التى يستطيع أن يتحدث عنها الدارس المتخصص، ولا ينكرها المتكلم العادى، فلا يمكن إنكار أن كل المفردات الدالة على حركة الحياة اليومية المادية واللغوية، هى مفردات عربية فصيحة وهى تعد بالآلاف مثل صحا ونام وأكل وشرب وجاع وعطش، وارتوى وشبع، وفرح وغضب، وتكلم وصرخ وهمس ووشوش وزعق ونبح وعض ومص وبلع وكسب وخسر وفكر ونجح وفشل وعام وغرق وزاد ونقص، ومشى وجرى وجلس وقعد ووقف وتأمل ودبر وتآمر وتعارك وانهزم وانتصر، وغيرها من آلاف الأفعال والأسماء المشتقة منها التى تعبر فى العامية والفصحى عن كل مظاهر الحياة، دون مشقة فى الانتقال من أحد النظامين المتشابهين إلى الآخر.

وهل تختلف شبكة التعبير عن الزمان والمكان فى النظامين الكتابى والكلامى؟ ونحن فى العامية نستخدم، قبل وبعد ومع ويمين وشمال، وأمام ووراء، وخلف وفوق، وتحت وبعيد وقريب، وامبارح (وهى البارح وهناك لهجة عربية تنطق «أل» «أم» فتقول «امبارح»، وقد ورد حديث نبوى على هذه اللهجة: ليس من امبر امصيام في امسفر. أى: (ليس من البر الصيام فى السفر) واليوم وبكرة وبعد بكرة والأسبوع والشهر والسنة والعام والليل والنهار والفجر والضحى والعصر والمغرب.. إلخ.

وهل يختلف الأمر كثيرًا فى نظام التصغير والتكبير؟ ألا نقول فى كلامنا اليومى: «كُوّيس» وهى تصغير «كيِّس» وقد جاء فى الحديث النبوى: «المؤمن كيّس فطن» ونقول «جنيّن» ونقول «جنينة» وهى تصغير «جَنَّة» و«شوية» وهى تصغير شىء؟

ألا نستخدم المفرد والمثنى والجمع بنفس الصيغ العربية؟

ومن قال: إن المثنى قد اختفى أو يطالب باختفائه، ونحن حتى الآن نقول للمعجب بنفسه: «شاف نفسه حبتين» و«معاه قرشين» وتقول الأغنية العاطفية «غاب عنى بقى له يومين».

ومن قال إنه يريد إلغاء «التنوين» لأنه ثقيل الدم وصعب النطق، وكل الناس ينطقون فى كل لحظة عبارة مثل: «أهلاً وسهلاً ومرحبًا» دون أن يجدوا صعوبة فى تعلمها ودون أن يعتقدوا أنها مستعارة من لغة أخرى.

ونفس الكلام يمكن أن يقال فى الحروف وفى أركان الجملة الأساسية أو المكملة وفى الصفات والأحوال فالعاميات تحذو حذو

الفصحى في الخطوط العريضة للنظام اللغوى، وتضيف إليها حيوية التنغيم والنبر واقتراب طريقة الأداء الصوتى من المعنى المعبر عنه، وتنقص عنها إسقاط كثير من علامات الإعراب، وإزالة اللبس الذى قد يحدث عن غيابها، من خلال وضوح علاقات الكلمات داخل الجملة.

وهذا الاقتراب الشديد بين النظامين، هو الذى ينبغى أن يدفعنا إلى تلافى الوقوع فى أحد طرفى المبالغة اللذين أشرنا إليهما، وهما افتراض أن أحد الطرفين عدو للآخر أو بديل عنه، ويجعلنا كذلك نفكر فى ضرورة الاستفادة من هذا التقارب فى تيسير تعليم اللغة المكتوبة، باعتبارها مستوى من مستويات اللغة، التى يعرف التلميذ جانبًا منها فى حياته اليومية، يتمثل فى العاميات التى هى لغة الكلام، ويسعى فى الوقت ذاته إلى تعلم الجانب الآخر وهو لغة «الكتابة» والتدرج بمعلوماته من المستوى الذى يعرفه إلى المستوى الذى يريد أن يكتسب معرفته.

وإذا استطعنا أن نقر هذا المبدأ فى الحوار، فسوف ننتقل بطريقة التعليم التى نمارسها الآن، ونحن نقدم اللغة العربية لتلاميذنا فى المدارس، من دائرة تعليم الطالب للغة، باعتبارها «لغة أجنبية» عنه ذات مفردات صعبة، وقواعد يبدو بعضها جافًّا، وبعضها مخيفًا، وبعضها غامضًا، إلى دائرة اعتبار اللغة المتعلمة، مستوى لغويًّا من مستويات لغة يعرفها التلميذ سلفًا وهذا المبدأ حين يضعه خبراء المناهج موضع التطبيق، فقد يكون عليهم أن يعيدوا النظر فى كثير من ملامح الكتاب المدرسى الذى يعلم التلميذ اللغة العربية أو يعلمه فروعًا أخرى باللغة العربية.

إن اختيار المفردات التى تستخدم فى مثل هذه الكتب يشكل التحدى الأول، وكل لغات العالم المتطورة، عرفت طريقة الاختيار العلمى لمعجم المفردات المألوفة المبسطة، وبعض اللغات تقف بهذه المفردات عند ألف كلمة، يكفى الإلمام بها للدخول إلى معارف اللغة، بل إنه من خلال هذا المعجم البسيط يمكن أن يتم إعادة عرض كثير من المؤلفات التراثية التى ينصرف عنها معظم أبناء العربية لصعوبة مفرداتها، وحاجتها إلى شرح القواميس، ولو أننا استفدنا من صحة كثير من المفردات التى تستخدم فى لغة الحياة اليومية واخترنا منها معجمًا بسيطًا نلتزم به فى المراحل الأولى للتعليم، لاستطعنا التدرج بالتلميذ من خلالها إلى ما نريد أن نضيفه إلى معجمه، لتشكيل لغة الكتابة لديه.

ونحن نخطئ كثيرًا، إذا كتبنا للتلميذ فى هذه المرحلة عبارة، مثل: «ادلهَمّ الليل» مهما كتبنا له من هوامش فى أسفل الصفحة.

ونفس القدر من التدرج ينبغى أن يلاحظ فى تقديم تراكيب لغة الكتابة وقواعدها، ويستطيع المتخصصون أن يبدأوا بطرح نماذج من تراكيب الجمل البسيطة التى تقترب فى بنيتها من تراكيب لغة الكلام على أن يتأخر دراسة التراكيب الخاصة إلى مراحل من التدرج تالية.

إن هذه النظرة ستعود بنا إلى مناقشة مسألة المستويات الأفقية لمتعلمى اللغة والمستويات الرأسية لمراحل اللغة، وضرورة إعادة النظر إليها وإجراء الإصلاح المنشود لطريقة تعليم اللغة العربية.

ونحن نقترح فى هذا المجال، التقسيم التالى لكل من المستويات الأفقية والرأسية.

أولا: المستويات الأفقية للمتعلمين:

هناك فرق بين الاحتياجات اللغوية للمتعلم العام والاحتياجات اللغوية للمتعلم الخاص، والاحتياجات اللغوية للمتعلم المتخصص.

١ - نعنى بالمتعلم العام:

كل من يحتاج إلى اللغة العربية من أبنائها ليلبى مطالب الاتصال الحياتية فى أشكالها الاجتماعية والثقافية المتعددة على مستوى الإرسال والاستقبال، ويدخل فى هذه الدائرة غالبية المتعلمين من أبناء اللغة العربية ممن يجتازون مراحل التعليم الأساسى، ويختارون التعمق فى التعليم التقنى أو الفنى أو التجارى، أو الرياضى أو العلمى، فى مراحله المتوسطة أو العالية، أو يختارون الانخراط فى النشاط الحر، ويمثل هؤلاء فى نهاية الأمر جمهرة الأطباء والمهندسين والكيميائيين والمحاسبين والفيزيائين والمشتغلين بالأعمال الحرة، وغيرهم ممن يحتاجون إلى القدر الضرورى من سلامة اللغة، الذى يسمح لهم بإشباع رغباتهم فى القراءة والتثقيف، وتوسيع آفاقهم حسب الرغبات والقدرات الذاتية، كما يسمح لهم بالتعبير عن حاجاتهم الأساسية الرسمية فى لغة كتابية سليمة وواضحة من خلال مراسلاتهم التى يكتبونها أو كلماتهم التى يؤدونها من خلال مواقعهم الاجتماعية أو الوظيفية وهذه الطائفة تدور احتياجاتها غالبًا فى إطار بناء اللغة العربية المعاصرة أو ما يمكن أن يسمى تجاوزًا لغة الإعلام التى تحقق الحد المعقول من القدرة على التواصل الثقافى إرسالاً أو استقبالاً وتصلح أن تكون مدخلاً جيدًا لمن يريد التوسع فى أسرار لغة التراث. وإذا اتفقنا على

أن الهدف بالنسبة لتعليم هذا المستوى يتحقق عند المعرفة الجيدة بالعربية المعاصرة، فإن علينا أن نتساءل عن الحجم الفعلى لكمية القواعد النحوية والصرفية والبلاغية والإملائية والمعجمية اللازمة لإجادة هذا المستوى، وعلينا أن نعيد النظر فى حجم ما نقدمه الآن من هذه القواعد، التى قد يكون الكثير منها ضروريًّا فى ذاته، ولكنه ليس ضروريًّا لهذه المرحلة، ويمكن التأنى فى تقديمه حتى المرحلة التالية، ولو أخذنا أبسط القواعد الخاصة بتركيب الجملة الفعلية والجملة الاسمية، وتأملنا فى القواعد التفصيلية التى تقدم حولهما فيما يتصل بالتقدير والحذف والاستتار والوجوب والجواز، فقد نجد أن كثيرًا منها ـ فضلاً عن طبيعته التجريدية والمنطقية ـ غير ضرورى لإجادة التعبير والكتابة والفهم، بل إنه أحيانًا ما يعطل الوصول إلى الهدف، حين يرتبك التلميذ فى التفرقة بين واجب الحذف وجائز الحذف، وكذلك الشأن فى الوجوب والجواز فى التقديم والتأخير، والتذكير والتأنيث، وغيرها من التفريعات والتفصيلات التى تزدحم بها كتب تعليم اللغة لأبنائها، وحتى لغير أبنائها ولا تقدم مردودًا مباشرًا، بل وقد تعوق تحقيق الهدف.

وإذا أردنا الوصول إلى تحديد الكم الضرورى من القواعد لإجادة اللغة فى هذا المستوى، فينبغى ألا يكون ذلك التحديد بدوره عشوائيًّا، نحذف خلاله من القواعد ما لايعجبنا أو ما نجد صعوبة فى فهمه أو لا نستخف دمه، فالقواعد الضرورية فى أى فرع من فروع المعرفة، ينبغى استيعابها بصرف النظر عن الصعوبة

والسهولة وثقل الدم وخفته، ولكن ينبغى تحديد هذه القواعد الضرورية بطريقة منهجية، وذلك هو واجب النحاة فى ذلك العصر، وأكثر الطرق المنهجية استقامة تكمن فى الانطلاق من النصوص الجيدة للمستوى اللغوى الذى نريد أن نتعلمه، واستخراج القواعد الضرورية المطلوبة من داخل هذه النصوص لا من خارجها.

وإذا تصورنا أن العربية المعاصرة، هى عربية القرن العشرين فإن دراسات علمية منهجية تستطيع اختيار النصوص الكبرى الرئيسية فى ذلك القرن، وتصنيفها إلى نصوص نثرية ونصوص شعرية، وبالوقوف مثلاً عند نصوص النثر لدى كتاب مثل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وجبران والزيات ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ومحمد حسنين هيكل وجمال حمدان وغيرهم من المؤلفين وكتاب المقالات والروائيين والقصاصين - سوف نجد مجموعة من قواعد اللغة والبلاغة، يمكن استخلاصها من كتاباتهم وتحويلها عبر الوسائل التعليمية الحديثة إلى مناهج لتعليم العربية المعاصرة، مع الإكثار من النصوص الحية المشوقة والتنويع بين وسائل السمع والبصر والاستعانة بالتقنيات الحديثة فى تحبيب اللغة إلى متعلميها، وفى هذا الإطار يمكن توسيع مفهوم كلمة المعلم بحيث لا تنحصر داخل جدران المدرسة أو فصول الدراسة - وإن كانت المدرسة تشكل النواة الرئيسية - وإنما تمتد إلى أجهزة الإعلام، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، وربما تكون التجارب قد أظهرت أن اللجوء إلى الطرق غير المباشرة، قد يؤدى إلى نتائج

أفضل من الطرق المباشرة التى ترصد برامج معينة لمحو الأمية أو تعليم قواعد اللغة، ويذهب كثير من الجهد الذى يبذل فيها فى الهواء، ويمكننا الاستفادة بتجارب وسائل الإعلام العالمية فى خدمة لغاتها، ومن أكثرها شيوعًا، ما تقدمه هيئة الإذاعة البريطانية من دروس فى تعليم اللغة الإنجليزية تلقى رواجًا بين المستمعين العرب، لأنها تقوم على أسس علمية، ويتم بذل جهود لتقديمها فى صور مشوقة تحاكى القصص المسلسلة أو فى صور تطبيقية مباشرة مثل البرامج التى تخصص للعبارات اللغوية التى ترد فى نشرات الأخبار أو تعالج الأحداث الجارية أو تلك التى تتصل بسوق المال والأعمال وغيرها من المجالات الحية التى تستجيب لحاجات فعلية يبحث المستمع أو المشاهد عن إجابات لأسئلتها، ويحس بعد سماع أو رؤية البرنامج أنه حصل على فائدة مباشرة، لا نذهب به إلى أبعد مما يحتاج فى هذه اللحظة ولا تتطلب منه حفظ كثير من القواعد المجردة، دون الإفادة منها إفادة مباشرة.

لكننا ينبغى أن نتنبه إلى أن أفضل الوسائل غير المباشرة فى استغلال وسائل الإعلام فى تعليم اللغة لهذا المستوى يكمن فى حسن اختيار المذيعين وتدريبهم تدريبًا جيدًا، قبل السماح لهم بتشكيل الحس اللغوى للجماهير التى تتأثر بهم أكثر مما تتأثر بالمدرسين، ويتسرب إلى عقولها ووجدانها مفاهيم الصواب والخطأ من خلال ما يسمعونه منهم، ولاشك أن أى مراقب منصف الآن، يحس أن المعايير التى تتحكم فى اختيار هذه الشريحة المهمة فى تكوين ألسنة الناس وعقولهم - إن كانت هناك معايير -

تعتمد أولاً على النفوذ الذى يملكه المرشح من خلال معارفه أو من يساندونه أو «يوصون» به، أيًا كانت قدراته الأخرى، وتعتمد فى جزء قليل على الإمكانيات الشكلية المظهرية للمرشح ومن خلال هذا يتم استبعاد كثير من الطاقات التى كان يمكن أن تشكل فريقًا مؤثرًا فى تقديم صورة جيدة محببة للغة العربية المعاصرة.

إن خبراء تعليم اللغة، يمكن أيضًا أن يستفيدوا من الإمكانيات الكبيرة، لتقنيات الحاسب الآلى فى صنع برامج متدرجة لتعليم اللغة، كما صنع خبراء اللغات الأخرى ويمكن أن تبدأ هذه البرامج بألعاب مصحوبة بالموسيقى والأغانى والصور المعبرة لمرحلة الطفولة المبكرة، يتعلم منها الطفل التعبير الصحيح، ويكافأ عليه بالحصول على مزيد من الوقت فى لعبته ويحترس من الوقوع فى التعبير الخطأ، الذى يمكن أن يحرمه من الاستمرار فى لعبته، ويمكن أن يتم تطوير البرامج للمراحل التالية، بما يتناسب مع قدراتها واحتياجاتها وفى سبيل إنجاز هذا الهدف فى تطوير تعليم اللغة من خلال التقنيات الحديثة، يمكن أن يكون لدينا أقسام متخصصة فى كليات التربية أو كليات الآداب يتخصص فيها مجموعة من الدارسين فى «هندسة اللغة» لمزج الوسائل الحديثة بالمعطيات الثابتة للغة، بهدف إعداد طائفة من البرامج المتدرجة الملائمة للعصر والمساعدة على تحقيق هدف هام مثل المحافظة على اللغة القومية، باعتبارها مرادفًا للمحافظة على الهوية.

إن اللغة العربية المعاصرة فى حاجة إلى هذا الجهد القومى المنظم من الناحية المنهجية والأكاديمية والتنظيمية والتنفيذية

والذى يمكن أن يطمح إلى تحقيق أهداف حيوية على طريق نهضة اللغة، ونهضة الشخصية القومية معًا، ومن أهم هذه الأهداف:

(أ) أن يصبح تعلم اللغة العربية مرادفًا للتعلم ذاته وليس مرادفًا للمتخصص كما هو الشأن الآن، وفى هذه الحالة سيكون من حق المتعلم العام ومن واجبه فى وقت واحد إجادة أصول اللغة العربية المعاصرة والتعامل بها - فى المواقف المناسبة لاستخدام لغة الكتابة - تعاملاً صحيحًا دون أن نلتمس له العذر حين يقصر بأنه طبيب أو مهندس أو كيميائى، أو رجل أعمال، أو فنىٌّ فى الصناعات، ويكون ذلك مدخلاً لعدم مطالبته، بما يطالب به المتخصصون فى اللغة والنحو أو الدراسات الإسلامية، ممن يعاب عليهم وحدهم الخطأ فى اللغة وقواعدها، وسيكون شأن المتعلم العام فى هذه الحالة، شأن نظيره من أبناء اللغات الأخرى الحية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية حيث لا يعتذر طبيب إنجليزى بأنه لا يحسن نطق الانجليزية لأنه غير متخصص فى آدابها، ولا يفعل ذلك المهندس الفرنسى أمام لغته، ولا الكيميائى الألمانى، وكذلك ينبغى أن يكون الطبيب والمهندس والكيميائى والفنى العربى أمام لغته، ولن يكون لهؤلاء عذر يتعللون به من صعوبة القواعد، أو عدم استيعاب الحذف والتقدير أو عدم القدرة على هضم أمثلة الشواهد الشعرية، فكل تلك الأشياء، سوف تؤجل إلى مراحل تالية، وإلى متعلمين لديهم رغبات واحتياجات أكثر تخصصًا.

(ب) سوف تتيح هذه المرحلة فرصة الانطلاق إلى مراحل أخرى،

علـى أسس ثـابـتـة، وانـطـلاقًـا مـن رغـبـة شـخـصـيـة أو حـاجـة تخصصية، ولن يحمل تخفيف تعلم بعض القواعد اللغوية فى هذه المرحلة من الآثار السلبية على تعلم اللغة، بقدر ما يحمل من الآثار الايجابية، فتأجيل تعلم بعض القواعد، لا يعنى - على الإطلاق - إلغاءها أو التقليل من أهميتها، وإنما يعنى ترك الحديث المفصل فيها، لمن هم مؤهلون لذلك أو راغبون فيه، ليكون عنصر الاختيار فى ذاته دافعًا إلى مزيد من التقدم والإحكام، وتقديم نماذج مشرفة قد تدفع مزيدًا من المتدرجين فى طائفة «المستوى العام» إلى التقدم إلى دائرة «المستوى الخاص» ومن المتعلمين للعربية المعاصرة، إلى التقدم نحو مشارف عربية التراث أو إلى عمقها.

٢ - المتعلـــم الخــــاص:

هذا هو المستوى الثانى من مستويات تعليم اللغة العربية ونعنى به مستوى المتعلمين الذين يتجاوزون مرحلة المتعلم العام، ويتقدمون إلى التخصص فى فروع المعرفة الإنسانية التى ترتكز على اللغة ارتكازًا رئيسيًّا فى أداء وظائفها دون أن تكون اللغة ذاتها موضع دراساتها وتخصصها، ويندرج فى هذه الطائفة، كثير من المنتمين إلى تخصصات إنسانية ترتكز على اللغة ارتكازًا رئيسيًّا، مثل تخصص الإعلام والقانون والدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية، وأبناء هذه التخصصات فى الوقت الحاضر، لا يحصلون على كفايتهم من الاحتياجات اللغوية الأساسية، وهم يتساوون، أو يكادون، مع أبناء المستوى العام الذين يتوجهون إلى

دراسات الطب والهندسة فيقدم لهؤلاء وأولئك مزيج من المستويات يختلط فيه عدم الكفاية بالصعوبة والتزيد.

وينبغي - في تصورنا - أن يتم وضع منهج لغوي متنوع لهذه التخصصات، وأن يكون جانب كبير من منطلقات المنهج متمثلاً في البحث عن إجابات لغوية للأسئلة التخصصية المثارة بما يضمن حرية حركة التطور، تجاوبًا مع الاحتياجات الواقعية وتطويع اللغة، مع المحافظة على خصائصها.

ومن هذه الزاوية وحدها يمكن أن تكون هذه المجالات التخصصية مصدرًا كبيرًا لإعطاء دفعة هائلة من التطور للغة العربية، ويتم هذا إذا وضعنا في الاعتبار أن مهمة مجال كمجال الإعلام لاتكمن فقط في السعي إلى الصحة اللغوية من خلال الاستجابة لبعض التفاصيل الجزئية أو القواعد المجردة وإنما تكمن - إضافة إلى ذلك - في تحقيق هذه الصحة من خلال الاستيعاب العام للهيكل الرئيسي للغة وتمثل جمالياتها - مع فتح باب الحوار معها - للعثور على إجابات في كنوزها الثمينة، للأسئلة والتحديات المعاصرة، وإذا تم تأسيس حوار من هذا اللون على أسس منهجية علمية، يشترك في التخطيط له علماء اللغة وعلماء التخصص في وقت واحد، فإن آفاق التطور التي يفتحها مثل هذا الحوار، آفاق لا تُحَدّ خاصة إذا وضعنا في الاعتبار، أن مثل هذا الحوار لن يفتح في مجال واحد، مثل الإعلام، وإنما ستواكبه وتوازيه مجالات أخرى، مثل القانون، والدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية، ودراسات الترجمة والأدب المقارن وعلوم

البرمجيات وفك الشفرات، وغيرها من المجالات التى يلعب فيها الحوار اللغوى والفكرى دورًا رئيسيًّا فى التطور الحضارى، وإذا أردنا للحوار فى مثل هذا المجال أن ينشط ويؤتى ثماره الطيبة، فلابد أن نهيئ طلابه الدارسين فيه، بقدر من العمق اللغوى والأدبى، يسمح لهم باتساع دائرة الرؤية وإثارة التساؤلات، وذلك بالطبع يكون من خلال تخصيص جزء أكبر من وقتهم الدراسي للاهتمام باللغة وقضاياها لا باعتبارها فرعًا معرفيًا منفصلاً عن تخصصاتهم، يتم اللجوء إليه من باب استكمال الواجبات، وإنما باعتباره فرعًا معرفيًّا متصلاً بهذه التخصصات، يتفاعل معها وتتفاعل معه، ويثرى بها وتثرى به.

لكننا مرة أخرى ينبغى أن نتنبه إلى ما سيقدم لهم فى الوقت الإضافى للاهتمام باللغة، فليس المقصود مجرد إضافة أبواب جديدة فى النحو والصرف والبلاغة، لم يكونوا قد درسوها من قبل أو زيادة عدد القصائد المطروحة فى عصر من العصور، أى أن نظن أن المطلوب هو التوسع فى «الكم» مع المحافظة على «نوع» الدراسة وإنما المطلوب بذل مزيد من الجهد، لإعداد منهج يلائم كل تخصص، مع الاقتراب التدريجى من كنوز اللغة وثقافتها وحضارتها، وينبغى إعادة التأكيد على أن إعداد مثل هذه المناهج الخاصة، ينبغى أن يتم من خلال حوار وتنسيق بين أساتذة التخصص وأساتذة اللغة، وألا يتم من خلال فرض بعض التصورات اللغوية المعدة سلفًا، والتى قد تكون فى ذاتها صالحة ومفيدة، وهى بالتأكيد كذلك لكنها قد لا تكون أكثر الأشياء مناسبة للشريحة التى تقدم إليها.

ونستطيع أن نتصور مدى الفائدة التى يمكن أن تعود على اللغة العربية وأبنائها المتخصصين فى هذا المستوى إذا كانوا يمتلكون ناصية اللغة، ويعتزون بها، وكثير منهم يتاح لهم أن يخاطبوا الجماهير، أو يكتبوا إليهم، وبعضهم يتواصل مع شرائح من المتخصصين، أو يحاضر فى المدارس والجامعات، ونحس جميعًا بمدى التفاؤل الذى يمكن أن يجتاحنا لو انتعشت اللغة شيئًا فشيئًا على يد هذه الطوائف الحيوية الهامة، ولو ازدادت معهم درجة الإحساس بنمو عناصر الشخصية القومية.

٣ ـ المستوى المتخصص:

وهو المستوى الذى يندرج تحته المتخصصون فى اللغة العربية من الأساتذة والمدرسين والباحثين والمراجعين وأمثالهم ممن يتخذون من اللغة مجالاً رئيسيًّا لأعمالهم ووظائفهم، وهذه الطوائف ـ التى يشكل مدرسو اللغة العربية الشريحة الرئيسية فيها ـ تختلف المدة الزمنية التى يقضيها أفرادها فى تعلم اللغة، من نظام تعليمى إلى آخر، فالغالبية منهم تنكب على دراسة اللغة العربية خلال سنوات الدراسة الجامعية الأربع، ويمتد بعضهم بالمدة فى تخصصات الدراسات العليا وما يوازيها، والأقلية تمتد فترة بداية تخصصها فى اللغة إلى مرحلة الدراسة الثانوية أو الإعدادية كما هو الشأن فى خريجى الكليات الأزهرية القادمين من المعاهد الدينية.

ولاشك أن هذه الطوائف فى مجملها، هى التى شكلت على مر العصور، حراس اللغة العربية وسدنتها وبفضل جهودهم المتواصلة حافظت اللغة العربية على مسيرتها رغم ما تعرضت له من عقبات،

وظلت قواعدها ونصوصها متداولة فى قاعات الدروس وعلى صفحات الكتب، وينبغى الاعتراف بفضلهم التاريخى الذى لاشك فيه.

لكن الاعتراف بهذا الفضل لا يتعارض مع الإشارة الواجبة إلى ضرورة إعادة النظر فى كثير من جوانب تجربة التخصص فى اللغة العربية، سواء من حيث نوع الدارسين الذين يقبلون على هذا التخصص، أو نوع المناهج التى يتم على أساسها تأهيلهم لوظائفهم، ومدى نجاح هذه المناهج والموضوعات التى تطرحها، والكتب التى تشرحها، فى إعدادهم إعدادًا ملائمًا قبل أن يتولوا هم مهمة إعداد غيرهم.

والواقع أن النظرة العامة على نوعية الدارسين، الذين يقبلون على التخصص فى اللغة العربية، تثير بعض التساؤلات من حيث ضآلة الرغبة وعدم توافر عنصر الاختيار بين الدارسين أنفسهم لدراسة اللغة العربية، ويظهر كذلك تواضع كفاءاتهم فى الفترة السابقة على التخصص، ويتضح ذلك من أن معظم هؤلاء الدارسين تدفعهم إلى هذا التخصص قوائم مكاتب تنسيق القبول بالجامعات، بعد أن تضيق أمامهم فرص الاختيار فى التخصصات الأخرى نظرًا لقلة مجموع درجاتهم نسبيًّا فى الثانوية العامة، وهو الأساس الذى يتم مراعاته فى توزيع الطلاب على الكليات المختلفة، ويترتب على هذا أن تقبل أقسام اللغة العربية بالجامعات الطلاب الذين لم تقبلهم التخصصات الأخرى، والذين غالبًا ما تكون قدراتهم فى اللغة العربية ذاتها أقل من قدرات زملائهم الذين قادهم مجموعهم الأعلى إلى كليات الهندسة والطب والتجارة والاقتصاد.

ولقد يلاحظ فى هذا المجال التدهور النسبى الذى حدث فى كفاءة الطلاب الذين يقبلون للتخصص فى اللغة العربية بالتعليم العالى، ومن المؤشرات الواضحة فى هذا المجال، اختفاء شهادة «تجهيزية دار العلوم» وهى الشهادة التى كانت تمنح لفريق متميز من طلاب المدارس الثانوية، يبدى تفوقًا ملحوظًا فى دراسة اللغة وحرصًا على استكمال دراسته بها، ويحصل على دراسات إضافية فى اللغة العربية خلال فترة دراسته الثانوية، ويجتاز امتحان «تجهيزية دار العلوم» ومع ذلك كان عليه أن يجتاز امتحانًا شفويًا قبل أن يدخل «دار العلوم» وهو الامتحان الذى كان يتميز نوابغ الطلاب فيه بمحفوظاتهم من روائع الشعر، التى كانت تصل غالبًا إلى ألف بيت، وهو كمٌّ يصعب أن نطالب اليوم من يتخرج فى دار العلوم لا من يرشح لدخولها، وغيرها من الكليات المناظرة بحفظ ما يوازى رُبْعه أو خُمسه.

وتتجسد نفس الظاهرة فى معاهد الأزهر وكلياته بطريقة تؤدى إلى نفس النتيجة، فالمعاهد الدينية عرفت حركة انتشار واسعة فى معظم القرى المتوسطة والمدن الصغيرة، بعد أن كانت مقتصرة على عواصم الأقاليم والمحافظات، وهذا التوسع فى ذاته خير لاشك فيه، ولكن هذا التوسع لم يواكبه غالبًا تخطيط موازٍ من حيث توفير الكفاءات التدريسية ولوازم الإعداد العلمى، وشروط الضبط والصرامة الضرورية فى الامتحانات، وترتب على هذا أن أصبحت هذه المعاهد تستقبل كثيرًا ممن لم تتح لهم فرص القبول فى التعليم العام، لنقص كفاءاتهم وقلة مجموع درجاتهم، فإذا ما دخلوا وجدوا كثيرًا من التساهل والتعاطف يقفز بهم، من سنة دراسية إلى أخرى،

قبل التأكد من استيعابهم، لما كان ينبغي أن يستوعبوه وتكون النتيجة أن يحصل الكثير منهم على الثانوية الأزهرية وبضاعته في اللغة العربية قليلة، لا تكاد تقارن بمتوسطي خريجي معاهد الأزهر الابتدائية قبل التوسع والتطوير، فضلاً عن نوابغ الخريجين في المعاهد الثانوية الذين كانوا - حتى عقود قليلة مضت - يتمكنون من ناصية اللغة العربية ويعملون على إنعاشها ، سواء واصلوا الدراسة في الأزهر أو أكملوها في كلية دار العلوم أو كليات الآداب.

ولقد تغير هذا كله الآن، أو كاد، وأصبحت كليات الآداب واللغة العربية ودار العلوم والتربية، تستقبل كل عام آلاف الراغبين في إكمال دراساتهم الجامعية في تخصص اللغة العربية، ممن قادهم مجموع درجاتهم إلى هذه الكليات وسط ظروف الإعداد اللغوي المتواضع الذي أشرنا إليه، ووسط عدم التحمس للتخصص الناتج عن عدم الاختيار.

وإذا ذهب هؤلاء إلى كليات التربية، فإن شبكة كبيرة من المواد التربوية والنفسية تطغى على برامجهم الدراسية، مما يجعل محصولهم في مواد اللغة العربية، التي سوف يتولون تدريسها، أقل مما ينبغي، وإذا ذهبوا إلى الكليات الأخرى فسيلتقون بكتب تدريس النحو والصرف التقليدية، أو بمذكرات منقولة عنها دون بذل الجهد الكافي لتطوير تدريس المادة المطروحة، والخروج من أسر الطرق القديمة حتى في الأمثلة والشواهد، والمشكلة الحقيقية، أنه حتى مع أهمية بعض هذه الكتب في ذاتها، فإن الفائدة التي يتم تحصيلها لهذه الفئة من الطلاب تبدو ضئيلة؛ لأنهم هم أنفسهم لم يؤهلوا

تأهيلاً تدريجيًّا يتيح لهم استيعاب كنوزها والإفادة منها وهم - في حالهم تلك - أشبه بالمعماري الذي يقيم دعائم بيت من القش والبوص وطوب اللبن، ثم يصب فوقه كتلاً خرسانية لا يتحمل الأساس الهش ثقلها، فتبدو الأعمدة ملتوية والبناء قابلاً للانهيار.

وقد يزيد من صعوبة مشكلة المنهج ما يشيع بالفعل عند التطبيق العملي لمفردات المنهج في كثير من هذه الكليات، إذ يلجأ بعض القائمين على التدريس بها إلى طرح نقاط جزئية من قضايا التراث النحوي، فيتوسعون في عرضها؛ لأنها كانت مجال دراسات لهم أثناء الإعداد لدرجات الماجستير والدكتوراة، أو بعدها، وقد تستغرق نقطة فرعية عامًا كاملاً من وقت الدارس، يقف فيه الطالب أمام متعلقات الجار والمجرور مثلاً، أو اسم فعل الأمر، وهو في نفس الوقت تخفى عليه كثير من جوانب بناء الجملة الاسمية أو الفعلية بناءً صحيحًا.

إن مشكلة الطائفة التي تدرس العربية في مستوى الدارس المتخصص مشكلة تحتاج إلى كثير من الصراحة في مواجهتها ومعالجتها؛ لأنها تتصل بتكوين الطائفة التي تشكل من ناحية قمة الهرم في المستويات السابقة: المتعلم العام، المتعلم الخاص، والمتعلم المتخصص، لكنها تشكل في الوقت ذاته بداية دائرة جديدة؛ لأن هذا المتعلم المتخصص هو الذي سوف يتولى إعداد كوادر جديدة في دائرة المتعلم العام والمتعلم الخاص.

ثانيًا: المستويات الرأسية للغة:

بنفس الطريقة التي نظرنا بها إلى المتعلمين للغة وحاولنا التفرقة بين مستويات ثلاث من بينهم، هي: مستويات المتعلم العام، والمتعلم

الخاص، والمتعلم المتخصص، بنفس الطريقة ينبغى أن يعاد النظر فى طريقة تقديم المادة اللغوية التى تستخلص منها القواعد ويتم على أساس منها تعليم اللغة وآدابها للراغبين فى ذلك من أبنائها أو من غير أبنائها.

ولاشك أن اختيار هذه المادة وتعيين حدودها التاريخية والجغرافية كانت الشغل الشاغل للنحاة الأوائل فى القرون الهجرية الأولى، وكانت دوافعهم الدينية معروفة فى المحافظة على لغة القرآن الكريم من اللحن الذى يمكن أن يصيبها؛ نتيجة لاختلاطها بكثير من اللغات الأخرى التى كانت تتكلم بها الشعوب التى دخلت فى دائرة الدولة الإسلامية فى فترة تاريخية وجيزة، مما اضطر الألسنة إلى التداخل. وأحدث من الخوف فى نفوس حماة اللغة العربية ما جعلهم يسارعون إلى تصور حدود «المنطقة اللغوية النقية» التى يتخذونها منطلقًا لاختيار نماذج لغوية تصلح لاستخلاص قواعد اللغة منها، وقادهم ذلك إلى أن يحددوا مناطق جغرافية فى قلب الجزيرة العربية سلم لسانها من الشوائب اللغوية لقلة اختلاط أبناء اللغات الأخرى بها بعد موجة الفتح التاريخية الكبرى، وإلى أن يحددوا أيضًا فترة تاريخية محددة تقف عند منتصف القرن الثانى الهجرى، ويصلح ما قيل فيها من كلام على لسان الشعراء والأدباء، بل وعلى لسان عامة الناس، أن يكون مصدرًا للاستشهاد وبناء قواعد اللغة.

ولاشك أن مشاكل كثيرة واجهتهم وهم يقومون بهذه المهمة التاريخية الجليلة، ويحاولون إخضاع المتناثر من الأمثلة والشواهد وأنواع النشاط اللغوى المختلفة لقاعدة أو لقواعد مطردة، وكان من

بين هذه المشكلات ما لاحظوه على لغة الشعر - التى يتطلب بناؤها على إيقاع موسيقى معين، وتشكيل مجازى تصويرى خاص - من عدم الالتزام ببعض القواعد التى تلتزم بها لغة النثر، التى تملك من حرية التعبير والتشكيل ما لا يملك الشعراء. وسعيًا لوضع الشعر والنثر معًا فى إطار قواعد تركيبية واحدة، لجأ النحاة إلى ما أسموه بالضرورة الشعرية؛ لكى يفسروا به ظواهر الاختلاف بين لغة الشعر ولغة النثر.

وكذلك كان صنيعهم مع اختلاف لهجات القبائل، حين أفرز هذا الاختلاف ظواهر تركيبية، بدا أن بعضها لا يخضع لاطراد القاعدة أو القواعد التى استخلصها النحاة من لغات القبائل الأخرى. وسعيًا لتوحيد القاعدة، لجأ النحاة إلى الحكم على الظواهر الأخرى بالشذوذ والضعف، وجرت فى أحكامهم كثيرًا عبارات مثل: «اللغات الشاذة» و«اللغات الضعيفة».

وعلى أية حال، فقد بذلوا جهدهم التاريخى المشكور فى إقامة هيكل قواعد اللغة العربية من خلال الإطار التاريخى والجغرافى الذى أشرنا إليه، وانتهوا إلى استخلاص قواعد تصلح لتفسير مجمل التراث، وطرحوا إلى جوارها نصوصًا أدبية منتقاة، استخلصوا منها أسس البلاغة فى علومها الثلاثة المشهورة: المعانى والبيان والبديع، مما جعل نحو اللغة وصرفها وبلاغتها تتشكل جميعًا فى فترة مبكرة من تاريخ تطورها.

بَيْدَ أنَّ اللغة لم تتوقف بعد فترة التشكيل هذه عن التطور والاكتمال، فقد اختلطت باللغات الأخرى اختلاط المتمثل المستفيد فازداد نضجها، وأفرزت كثيرًا من نماذجها الفكرية والأدبية

والحضارية فى فترات تالية، لكن هذا الاختلاط تشكل فى فترات الضعف الحضارية التالية بصور أخرى، فتعرض نسيج اللغة للضعف وتعرضت بعض جوانب بنيتها للتآكل، وذلك فى فترات العصر التركى والمملوكى، ثم عادت اللغة العربية من جديد لتستعيد عافيتها على إثر اتصالها بلغات الغرب فى القرن التاسع عشر، وانتعشت بعض الفنون الأدبية بها انتعاشًا لم تعرفه من قبل، وطاولت بعض القامات الحديثة من الشعراء والأدباء قامات كبار الأدباء فى العصر الذهبى للغة العربية فى مراحل نهضتها الأولى.

ولهذا فمن الصعب أن نقول: إننا أمام فصحى واحدة تمتد امتدادًا طويلاً، يتجاوز ألفًا وخمسمائة عام وهو امتداد لايعرفه تاريخ أى لغة أخرى فى العالم، وإنما يصح أن نقول: إننا أمام فصحيات متعددة متدرجة متداخلة، بينها - لاشك - كثير من أوجه التماثل فى مفرداتها وتراكيبها، ولكن الذى لاشك فيه كذلك، أن بينها كثيرًا من أوجه الملامح اللغوية الخاصة بكل مرحلة أو بكل «فصحى» إذا صح هذا التعبير.

ومن الخطأ المنهجى فى التعليم أن نضع كل هذا التراث الطويل من العطاء اللغوى والأدبى فى سلة واحدة، ونطلب من المتعلم أو «المشترى» أن يحمله كله، أو أن يتركه كله، وغالبًا ما يلجأ إلى الخيار الأخير، بعد أن يحاول بذل الجهد فى زحزحة هذه السلة الثقيلة عن الأرض، وكثيرًا ما يفعل هذا وهو نادم؛ لأن الذين قدموا له «البضاعة» لم يفتحوا شهيته أولاً، و لم يشجعوه على التدرج فى التدرب على حمل محتويات السلة بقدر حاجته وقدر طاقته، ولهذا

فإنا ينبغى أن نعود مرة أخرى إلى فكرة المستويات لتجزئة حمل هذه السلة المزدحمة بالخيرات إلى أحجام ملائمة ومغرية، وإرجاء الحمل الأكبر إلى الذين تقوى عضلاتهم وتشتد حاجاتهم فيما بعد.

إن تطبيق فكرة المستويات هنا سوف يدعونا إلى استخلاص القواعد التى تشيع فى نصوص عربية التراث وحدها ولا ترد عادة فى نصوص العربية المعاصرة، ونرجئ تقديمها إلى المتعلمين، فلا تطرح إلا لمن يتجاوزون مرحلة المستوى الأول، التى أشرنا إليها فى التقسيم الأفقى، وهى مرحلة «المتعلم العام»، وعلى أن يتم ذلك الطرح أيضًا بطريقة تدريجية تبدأ من مرحلة المتعلم الخاص، ويتم التوسع فيها فى مرحلة «المتعلم المتخصص».

وإذا نزلنا درجة على سلم المستويات الرأسية، فسوف نلتقى بعد «العربية التراثية» بمرحلة «العربية الوسيطة» وهى تلك المرحلة التى تشمل العصور التركية والمملوكية بمعناها العام، وتمتد من القرن السادس الهجرى حتى مشارف العصر الحديث. ولاشك أن للعربية فى هذه المرحلة ملامحها الخاصة بها، والتى تشكلت من خلال الاتصال بلغات أخرى، كانت تشكل لغات الحاكمين وأصحاب النفوذ، ونتيجة اقتراب مستوى اللغة الفصحى من اللهجات الشعبية وشيوع ألوان من الأدب المكتوب بهذه اللغة الوسطى، مثل حكايات ألف ليلة وليلة، وأدب العجائب والغرائب، وأدب الرحلات والمدونات التاريخية والجغرافية، وغيرها من ألوان الإنتاج الذى يحمل مذاق هذه الفترة، ويشكل ملامح للغة وسيطة، لم نستخلص بعدُ كلَّ خصائصها، ولم نقم بدراسات كافية حولها،

اكتفاءً بوصفها بأنها لغة عصر الانحطاط والتدهور، مع أنها تصلح ـ كما أثبتت تجارب بعض المبدعين ـ لتكون منبعًا ثريًّا لكثير من ألوان الإبداعات الأدبية، ولو أن المنظرين أعطوا لهذا المستوى الرأسى من مستويات اللغة اهتمامًا خاصًّا، ورصدوها رصدًا وصفيًّا، لفتحوا نافذة على مرحلة من مراحل تطور اللغة، يمكن أن تعود دراستها بالكثير من الفائدة على تاريخ اللغة الحية المتطورة والمحافظة على خصائصها الرئيسية والصامدة فى وجه ما يهب عليها من عواصف خارجية، بل والمتمثلة لما فى بعض هذه العواصف من قوة دفع وتجديد.

أما المستوى الثالث من مستويات العربية فى التقسيم الرأسى، فهو يلتقى مع المستوى الأول الذى أشرنا إليه على المستوى الأفقى، ونعنى به مستوى العربية المعاصرة، الذى يلائم مستوى المتعلم العام، الذى أشرنا إليه من قبل. وإذا استطعنا أن نرسم منهجًا جديدًا لتعليم اللغة العربية يقوم على فكرة الفصل بين المستويات، واختيار المستوى اللغوى الملائم لكل شريحة تعليمية، فربما نساعد على سريان اللغة العربية الصحيحة دون تهيب على مزيد من الأقلام والألسنة.

الخاتمة:
عود على بدء

هذا التراث العريق للعربية يُعد دعامة رئيسية من دعائم الوجود العربى ذاته، ومعه الوجود الحضارى الإسلامى المشرف للعرب أيًا كانت عقائدهم أو نزعاتهم الفكرية. والوجود الحضارى الإنسانى بعامة وهذا التراث العريق، هما اللذان شكّلا الجذور القوية التى تحافظ على شجرة الهوية القومية من الاقتلاع، رغم ضراوة الريح التى تهب عليها من كل جانب طوال فترات التاريخ المتعاقبة، والتى اتسمت بالتدبير والتخطيط طوال العصر الاستعمارى، واستهدفت بوضوح اللغة باعتبارها مقومًا رئيسيًا للوجود، فدارت المؤامرات والخطط والمشاريع والأبحاث حول تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية، أو حول إحلال العاميات محل اللغة الفصيحة المكتوبة، وحول التقليل من قيمة اللغة العربية والمشتغلين بها فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولاشك أن هذه الحملات قد حققت بعض أهدافها من خلال طول النفس والتخطيط المحكم والسخاء فى الإنفاق على هدف عزيز المنال، ويكفى أن ننظر إلى ما أصاب «الحرف العربى» من انحسار

وانكسار على امتداد القرن العشرين، حيث أجبرته القوى المعادية للعربية وتراثها على التخلى عن تمثيل اللغات الإسلامية غير العربية، التى كانت تتخذ هذا الحرف وسيلة لكتابتها، ومنذ ثورة كمال أتاتورك، بدأ الانحسار الكبير، بتحول اللغة التركية إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، فانحسر الحرف العربى عن أوروبا، بعد أن كان يتألق حتى فى فنونها الحضارية والمعمارية ومن قبل فى ثقافة أعلامها وعلمائها، ولم يلبث هذا التصدع للحرف أن ظهرت آثاره فى آسيا، فى ظل الدول التى قامت على أنقاض الدولة العثمانية، وورثتها الإمبراطوريات السوفيتية والصينية، مثل منطقة تركستان التى سعى الاتحاد السوفييتى السابق جاهدًا إلى إزاحة الحرف العربى عن مناطقها الشاسعة ولهجاتها المتعددة، وأحل محله حرف «الكيريل». وجاءت الثورة الثقافية الصينية لكى تزيل ما بقى من وجود للحرف العربى فى مناطق آسيا الواسعة الواقعة تحت نفوذها، وحدثت نفس الظاهرة فى إفريقيا، حيث كانت لغات إسلامية كثيرة تكتب بالحروف العربية، وفى مقدمتها اللغة السواحلية التى تمتد على معظم أرجاء شرق إفريقيا والتى ظلّت تكتب بالحروف العربية حتى الستينيات من القرن العشرين، ومثلها لهجات ولغات إسلامية فى غرب إفريقيا ووسطها.

وهذا الانحسار الشديد من شأنه أن يوجد التصدع فى البناء العريق لتراث العربية، ومن شأنه أن يكون مقدمة لامتداد التقليص والتدمير إلى الساحة الداخلية للغة، وهو ما تكفلت به موجات التخطيط الجديد فى ثقافة ما بعد الاستعمار فى عصر العولمة.

ومن أجل هذا، فإن المحافظة على ما بقى ينبغى أن تسانده خطط واضحة وأهداف بعيدة مرئية.

ينبغى فى أضعف الإيمان ألا نشارك بأيدينا فى هدم ما بقى من الجدران التى تؤوينا دون سواها، ولكن ذلك لا يمنع أبدًا من تجديدها إذا تصدعت، وتدارك الآيل منها قبل السقوط وتعديلها لكى تستجيب لحاجات العصر الذى نعيشه.

وفى هذا الإطار ينبغى ألا تكون دعواتنا لإصلاح اللغة عشوائية، وألا نضيق خلال طرحها بالآراء المخالفة ما دمنا جميعًا نتوخى المحافظة عليها وتطويعها لمتطلبات العصر، وينبغى أن نعمل على إعادة تقوية الشبكة الخارجية للغة التى كانت تمثل أجنحتها الوسيلة الضرورية اللازمة للتحليق والانطلاق، ويمكن أن يتم ذلك فى شكل التخطيط لتعاون ثقافى أشد متانة وأكثر اتساعًا مع اللغات التى تكتب بحروف عربية، مثل اللغة الفارسية، واللغة الأردية، وهما تمتدان على مناطق شاسعة فى إيران وأفغانستان والهند وباكستان، ويمكن لهذا التخطيط ألا يكتفى بتوثيق روابط الماضى، وإنما يطمح إلى التخطيط لمتطلبات الحاضر والمستقبل فى ظل صراع الحروف وفك الشفرات على شاشات أجهزة الاتصالات البيضاء، وهو صراع، يقول خبراء اللغات ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ : إن اللغة العربية يمكن أن يكون لها فيه قدم راسخة، ويد مؤثرة.

وينبغى كذلك أن نعمل على إعادة الحياة الحقيقية للغة، داخل مجالها القومى من خلال تفعيلها الحقيقى فى الحياة الاقتصادية. والاجتماعية والثقافية والتعليمية والإعلامية، وكل تلك مجالات

تنعش اللغة، وتعمل على زيادة كفاءة رئتيها فى تصفية الهواء وانعكاس مردوده على الدم نقاءً وجريانًا وعلى الجسد صحة وانتعاشًا، وليس إصلاح طرائق تعليم اللغة نحوًا وصرفًا وبلاغة وإملاء، إلا مدخلاً أوليًا لإعادة الحياة فى المجالات التى أشرنا إليها، والتى تبدو دعوات إصلاح اللغة فى غيابها ضربًا من التخطيط النظرى والحوار العقلى المجرد.

إن المحافظة على اللغة والتمسك بها لا تتعارض أبدًا مع فتح باب الحوار والنقد على مصاريعه بشرط أن يكون قائمًا على أسس علمية، من شأنها أن تهب اللغة مزيدًا من التماسك وتلافى نقاط الضعف والاستجابة لمتطلبات الحياة، وبهذا كله نستطيع أن نجمع إلى عراقة التراث وحيوية التطور، الأمل فى المستقبل الواعد للغة والشخصية القومية معًا.

أهم مراجع الكتاب

حرصت، خلال صياغة فصول هذا الكتاب، أن أجعله موجهًا للمثقف العام وليس فقط للقارئ المتخصص؛ نظرًا لأهمية القضية المطروحة واتساع دائرتها، ولهذا حرصت على أن أخفف متن الكتاب من كثير من الإشارات والمراجع والهوامش، ليكون أقرب إلى شكل المقال الثقافى، دون أن يعني ذلك تخفف الكاتب من التثبت والعودة للمراجع الضرورية، وفضلاً عن استشارة القواميس ودوائر المعارف، وصفحات شبكة المعلومات ـ أثبت هنا أهم المراجع التى رجعت إليها خلال صياغة هذه الفصول حسب ترتيب عناوينها ألفبائيًا:

١ ـ أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى ـ دراسات تأصيلية ـ دكتور أحمد فؤاد باشا ـ دار الهداية ـ ١٩٩٧.

٢ ـ إنقاذ اللغة من أيدى النحاة حوار جذرى حول مشكلات العربية المعاصرة ـ دكتور أحمد درويش ـ دار الفكر «سوريا ولبنان» ١٩٩٩.

٣ ـ التعريب والتنمية اللغوية ـ دكتور ممدوح خسارة ـ الأهالى للطباعة والنشر ـ دمشق ١٩٩٤.

٤ ـ التعريب فى ضوء علم اللغة المعاصر ـ دكتور عبد المنعم حسن الكاروری ـ جامعة الخرطوم ١٩٨٦.

٥ ـ التنوع البشرى الخلاّق تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية ـ إشراف وتقديم دكتور جابر عصفور ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ١٩٩٧.

٦ ـ ثقافتنا فى عصر العولمة ـ دكتور أحمد درويش ـ لونجمان ٢٠٠٣.
٧ ـ الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ دكتور نبيل على ـ عالم المعرفة ٢٠٠١.
٨ ـ الثقافة العربية أقدم من الثقافتين الغربية واليونانية ـ عباس محمود العقاد: الأعمال الكاملة ـ بيروت سنة ١٩٧٤.
٩ ـ عَوْد إلى الصحة اللغوية ـ دكتور عبد الله التطاوى ٢٠٠٥.
١٠ ـ لتحيا اللغة العربية يسقط سيبوبه ـ شريف الشوباشى، الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٤.
١١ ـ لغتنا العربية فى معركة الحضارة ـ إشراف: محمود أمين العالم ـ قضايا فكرية ـ مايو ١٩٩٧.
١٢ ـ فى التعريب والتغريب ـ دكتور محمود فوزى المناوى ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٠٠٥.

كتب أخرى للمؤلف:

١ ـ أفئدة الطير ـ ديوان شعر ـ الدار المصرية اللبنانية سنة ٢٠٠٥.
٢ ـ ثقافتنا فى عصر العولمة ـ لونجمان ـ القاهرة ٢٠٠٢.
٣ ـ الاستشراق الفرنسي والأدب العربى ـ دار غريب، القاهرة، الطبعة الثانية، الطبعة الأولى ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٧.
٣ ـ نظرية الأدب المقارن وتجلياتها فى الأدب العربى ـ دار غريب ـ ٢٠٠٢.
٤ ـ خليل مطران شاعر الذات والوجدان ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ٢٠٠١.
٥ ـ النظرية الشعرية (بناء لغة الشعر واللغة العليا) ـ مترجم ـ دار غريب ـ ٢٠٠٠.
٦ ـ فى صحبة الأميرين أبى فراس الحمدانى وعبد القادر الجزائرى ـ مؤسسة البابطين ـ الكويت ٢٠٠٠.
٧ ـ إنقاذ اللغة من أيدى النحاة ـ دار الفكر ـ سوريا ١٩٩٩.
٨ ـ فن التراجم والسير الذاتية (مترجم) ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ١٩٩٩.
٩ ـ تقنيات الفن القصصى عبر الراوى والحاكى ـ لونجمان ـ القاهرة ١٩٩٨.
١٠ ـ تطور الأدب فى عُمان ـ دار غريب ـ ١٩٩٨.
١١ ـ النص البلاغى فى التراث العربى والأوربى ـ دار غريب ـ ط. الثانية، ط. أولى ـ مكتبة النصر ١٩٩٢ ـ ١٩٩٨.
١٢ ـ دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ـ دار غريب ـ ط . الثانية، ط. أولى ـ مكتبة الزهراء ١٩٨٤ ـ ١٩٩٨.
١٣ ـ التراث النقدى : قضايا ونصوص ـ (هيئة قصور الثقافة) مصر ـ ١٩٩٨.

١٤ ـ متعة تذوق الشعر ـ دار غريب ـ ١٩٩٧.
١٥ ـ الأدب المقارن، النظرية والتطبيق ـ دار الفكر الحديث ط الثالثة، ط. أولى مكتبة الزهراء ١٩٨٥ ـ ١٩٩٦.
١٦ ـ الكلمة والمجهر (فى نقد الشعر) ـ دار الشروق ـ القاهرة ط الثانية، ط. أولى ـ دار الثقافة ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦.
١٧ ـ فى النقد التحليلى للقصيدة المعاصرة ـ دار الشروق ـ ط الثانية، ط. أولى ـ النهضة المصرية ١٩٨٨ ـ ١٩٩٦.
١٨ ـ اللغة العليا (النظرية الشعرية) مترجم ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ ١٩٩٥.
١٩ ـ أحمد الشايب ناقدًا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٤.
٢٠ ـ بناء لغة الشعر (مترجم) ـ دار المعارف (الطبعة الثالثة)، الطبعة الأولى ـ دار الزهراء ١٩٨٥، الطبعة الثانية ـ قصور الثقافة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٣.
٢١ ـ مدخل إلى دراسة الأدب فى عُمان ـ دار الأسرة ـ مسقط ـ ١٩٩٠.
٢٢ ـ جابر بن زيد ـ حياة من أجل العلم ـ مسقط (الطبعة الأولى ١٩٨٨. صدرت طبعة لاحقة للكتاب فى سلسلة أعلام العرب ـ الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٢.
٢٣ ـ مدخل إلى الدراسات البلاغية ـ دار الثقافة العربية ـ ١٩٨٣.
٢٤ ـ العربية لغة بسيطة ـ I, ARAB - LANG : SIMBLE ـ باريس ١٩٨٢.
٢٥ ـ نافذة فى جدار الصمت (ديوان شعر بالاشتراك) ـ مكتبة الشباب ١٩٧٥.
٢٦ ـ ثلاثة ألحان مصرية (ديوان شعر بالاشتراك) ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٠.